المسلمون في مصر

من الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي

(٢١-٥٦٧هـ/ ٦٤١-١١٧١م)

دكتور

عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح

قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الناشر

دار الهاني للطباعة والنشر والتوزيع

شوال ١٤٣٠هـ/ أكتوبر ٢٠٠٩م

الفصل الخامس

الدولة الطولونية[1]

(٢٥٤-٢٩٢هـ/ ٨٦٨-٩٠٥م)

قبل الانطلاق في استعراض أحداث الطولونيين، إليك هذا الجدول الذي يوضح (أمراء الدولة الطولونية):

اسم الأمير	كنيته	الفترة التي حكمها بالتاريخ الهجري والميلادي
١- احمد بن طولون	(ابو العباس)	٢٥٤-٢٧٠هـ/٨٦٨-٨٨٤م
٢- خمارويه بن احمد بن طولون	(ابو الجيش)	٢٧٠ - ٢٨٢هـ/ ٨٨٤-٨٩٥م
٣- جيش بن خمارويه	(ابو العباس)	٢٨٢-٢٨٣هـ / ٨٩٥ - ٨٩٦م
٤- هارون بن خمارويه	(ابو موسى)	٢٨٣ - ٢٩٢هـ / ٨٩٦-٩٠٥م
٥- شيبان بن احمد بن طولون		٢٩٢هـ

(١) تنسب هذه الدولة إلى طولون، والد مؤسس الدولة الطولونية (أحمد بن طولون). وقد كان طولون رجلاً تركيًا، أرسله صاحب بلاد ما وراء النهر (نوح بن أسد الساماني عامل بخارى) إلى الخليفة المأمون مع الرقيق المُهْدَى إليه سنة ٢٠٠هـ. ويبدو أن طولون هذا تمتع بميزات وكفاءات عسكرية في ظل خلفاء بني العباس، وبلغ منزلة طيبة لديهم حتى وفاته سنة ٢٤٠هـ. ولد لطولون أحمد في سامرا في الثالث والعشرين من رمضان سنة ٢٢٠هـ وظل أحمد يترقى في سلك الجندية بدار الخلافة، وكان ذا صيت طيب، حريصًا على العلم والثقافة، حافظًا للقرآن الكريم، مشهوراً بالصلاح. وقد حاول قادة الأتراك ومعهم قبيحة أم المعتز إغراءه بقتل الخليفة المستعين (٢٤٨-٢٥٢هـ)، الذي ولي بعد موت المنتصر بن المتوكل، وثار عليه المعتز وخلعه، فأبى خلق أحمد أن يقتل خليفة المسلمين، الذي له في عنقه بيعة يجب الوفاء بها. وعلى كلٍّ، فقد قتله سعيد الحاجب سنة ٢٥٢هـ. وقد ولي أحمد مصر من سنة ٢٥٤-٢٧٠هـ حيث توفى بها، واستقل عن الخلافة استقلالاً حقيقيًا، وله بها مآثر وإصلاحات تشهد له بالعبقرية وحسن الإدارة (تاريخ الطبري ٩/ ٣٦٣،٣٨١، وسيرة ابن طولون، للبلوي ص ٤١، ووفيات الأعيان، لابن خلكان «طبعة صادر» ١ / ١٧٣-١٧٤ ، وسير أعلام النبلاء، للذهبي ١٣ / ٩٤-٩٦ .

رأينا - فيما مضى- النزعة الاستقلالية التي اتسم بها بعض الرجال المبرِّزين في مصر، الذين حاولوا السيطرة عليها بعيدًا عن سلطة الخلافة العباسية، وقد شجعهم على ذلك ما لمسوه من ضعف سلطان الخليفة؛ نتيجة شيوع الاضطرابات في دار الخلافة، هذا إلى جانب ما تتحلى به مصر من ميزات الموقع والغنى والثروة، مما تتحلب له شفاه الطامعين في السلطة والحكم في مصر، ورأينا أن صراعًا نشب بين أسرتى السرى، وابن الجروي، نجحت بعده الأسرة الأولى في الاستقلال بمصر شيئًا ما، لكن سرعان ما تدخلت جيوش الخلافة، وفرضت سيطرة العباسيين على مصر مرة أخرى.

وفي عهد الخليفة المعتز، ولي أحمد بن طولون مصر- نيابة عن باكباك التركي- وذلك في الثالث والعشرين من رمضان سنة ٢٥٤هـ[1] . وقد نظر أحمد بن طولون إلى ولاية مصر نظرة ثاقبة فاحصة، وأدرك القوى المسيطرة عليها، خاصة أنه ولى قصبتها (عاصمتها) دون غيرها من الأعمال الخارجة عنها كالإسكندرية وغيرها[2] . وأدرك أحمد أن تلك القوى عراقيل تعترض سبيله نحو الاستقلال بمصر، فأخذ يتعامل مع هذه القوى واحدة بعد الأخرى على النحو الآتي:

أولاً: تعرضت مصر في بداية عهده لثورة أحد العلويين، ويعرف بـ (بغا الأصغر)، حيث قام بثورة بين الإسكندرية وبرقة في جمادى الأولى سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م، وانضم إليه بعض مؤيديه، وانطلقوا إلى الصعيد، فأرسل إليهم أحمد بن طولون قائده بُهْم بن الحسين، وتمكن من إلحاق الهزيمة

(١) لم يذكر الكندي في (الولاة) ص ٢١٢: أن أحمد بن طولون ولي مصر نيابة عن أحد الأتراك، بخلاف ما ورد في (تاريخ الطبري) ٩ / ٣٨١: أنه وليها نيابة عن بايكباك التركي سنة ٢٥٤هـ ثم لما قُتِل بايكباك سنة ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م (المصدر السابق ٩/ ٤٦١)، وليها يارجوخ التركي وناب عنه ابن طولون كذلك. وقد توفى يارجوخ في يوم الجمعة الثامن من رمضان سنة ٢٥٨هـ/ ٨٧٢م (السابق ٩/ ٥٠١)، وبعدها كانت ولاية أحمد من الخليفة نفسه مباشرة على مصر كلها.

(٢) الخطط: ١/ ٣١٤ .

بالثائرين، وقتل قائدهم (بُغا)، وأتى برأسه إلى الفسطاط في التاسع عشر من شعبان سنة ٢٥٥هـ(١) .

ثانيًا: قامت ثورة أخرى في صعيد مصر، قادها ابن الصوفي العلوي سنة ٢٥٣هـ (قبل ولاية أحمد بن طولون)، وتمكن من دخول إسنا في ذي القعدة سنة ٢٥٥هـ، فأحدث بها قتلاً ونهبًا، فأرسل إليه ابن طولون جيشًا، تمكن ابن الصوفي من قتل قائده وإلحاق الهزيمة به، فأوفد ابن طولون قائده المغوار بهم بن الحسين ومعه القائد ابن عُجيف، واشتبك الجميع مع ابن الصوفي بالصعيد وهزموه، فولى مدبرًا، وترك ما كان معه، مخلفًا رجّالة جيشه تتعرض للهلاك، ومضى هذا الثائر المنهزم إلى تنيس، ومنها إلى أسوان. كان يوجد بأسوان قائد من آل عمر بن الخطاب، يدعى أبا عبدالله العمري، ويبدو أن عداء مستحكمًا كان بينه وبين ابن الصوفي، فاقتتل جيشاهما، وحلت بابن الصوفي هزيمة فادحة، فر على أثرها يَعيث في الأرض فسادًا؛ إذ قطع لأهل أسوان ٣٠٠ ألف نخلة. وعزم ابن طولون على القضاء عليه، فأرسل جيشًا بقيادة ابن سيما؛ ليساعد بُهْم بن الحسين في القضاء على ذلك الثائر، لكن ابن الصوفي هرب إلى مكة عن طريق البحر الأحمر، وأقام بها، وأرسل ابن طولون إلى مكة، فأحضره إلى مصر وسجنه، ثم أطلقه، فخرج إلى المدينة، ومات بها(٢) .

ثالثًا: ثار عيسى بن الشيخ بن السليل الشيباني والي فلسطين والأردن، وخلع طاعة الخلافة وتغلب على دمشق، ورفض دفع الخراج للعراق، بل تمكن من الاستيلاء على الأموال، التي جباها أحمد بن عبيد الله بن المدبِّر من مصر، وهي في طريقها إلى دار الخلافة، وكانت ٧٥٠ ألف دينار، وذهب إلى أكثر من ذلك حين هدد أحمد بن طولون والي مصر، وأمره أن يسلم له ولاية مصر. وهكذا امتدت أطماعه واستفحل خطره. ويبدو أن الخلافة استنجدت بابن طولون؛

(١) الولاة: ص ٢١٢ .

(٢) المصدر السابق: ٢١٣-٢١٤ .

ليصده سنة ٢٥٦هـ، لكن ماجور التركي رفض تدخل أحمد بن طولون، وتدخل هو وهزم ابن الشيخ وقتل ابنه، وتولى أعمال الشام كلها(١) ؛ وبهذا حقق ما كان يسعى أحمد إليه .

- **رابعًا:** بويع الخليفة المعتمد بن المتوكل بالخلافة سنة ٢٥٦هـ، فأقر أحمد بن طولون على مصر. وكان أحمد عندما قدم مصر يشاركه في حكمها صاحب الخراج أحمد بن المدبر، وكان ذا نفوذ وسطوة عظيمة، وأتباع كثيرين، وكان شُقَيْر الخادم غلام قبيحة أم المعتز، يلي البريد، وكان إسحاق بن دينار على الإسكندرية. ويلاحظ أن الوالي التركي كان يعين أكثر من نائب له، ويوزع السلطات على أكثر من شخص؛ لئلا ينفرد أحدهم بالولاية، فيستقل بها. وقد خدمت الأقدار ابن طولون بأن أزاحت من طريقه هؤلاء المنافسين، حين عزل شقير سنة ٢٥٥هـ، وبعزله تخلص ابن طولون من جاسوس خطير للخلافة عليه، وأصبح يتصرف بحرية أكثر في مصر؛ إذ تأتيه عيونه بأخبار بغداد، في حين ضعفت قدرة الخلافة على متابعة أخباره وتعرف أسراره، وأسرار ولايته. وبخصوص عامل الإسكندرية إسحاق بن دينار، فقد ورد كتاب يارجوخ التركي أن يسلم إسحاق الإسكندرية لأحمد بن طولون في ٨ من رمضان سنة ٢٥٧هـ/ ٨٧١م(٢) . ثم أزالت الأقدار ابن المدبر من طريق ابن طولون، وذلك عندما بعث الخليفة المعتمد إلى ابن طولون يحثه على إرسال الخراج إلى دار الخلافة، فأجابه أحمد: كيف يكون ذلك والخراج بيد غيري؟! فولاه المعتمد الخراج، وأضاف إليه الثغور في الشام كذلك(٣) .

خامسًا: برز عداء أبي الموفَّق طلحة، أخي الخليفة المعتمد(٤) وولّي عهده لأحمد

(١) الولاة: ص٢١٤ - ٢١٥ .

(٢) الولاة: ص٢١٦ . وعرض المقريزي في الخطط ١/ ٣١٤ صراع ابن طولون مع ابن المدبر، وشقير.

(٣) الولاة: ص ٢١٧ .

(٣) هو ولي عهد المعتمد، وأخوه، وابن المتوكل على الله الخليفة العباسي، ووالد أمير المؤمنين المعتضد. =

ابن طولون. لقد كان العداء طويلاً ومستحكمًا بينهما، وكان التناقس المقيت على أشده، ويكاد يعصف بابن طولون في ولاية مصر. لقد كان نفوذ الموفق في دولة الخلافة كبيرًا، وكان إدراكه لقوة ابن طولون في مصر إدراكًا صحيحًا، وعلم أن ابن طولون يسعى – حثيثًا– للاستقلال بولاية مصر؛ ومن هنا كان يسعى للوقيعة بينه وبين الخليفة؛ ليعزله عن مصر، ويتقلص بذلك نفوذه. وبالفعل أرسل الموفق إلى موسى بن بغا يعلمه بتقليده ما جور التركي ولاية مصر إلى جانب دمشق. جيّش ماجور الجيوش لمحاربة ابن طولون، لكنه عجز عن لقاء ابن طولون؛ مما دفع موسى بن بغا إلى الخروج لقتال ابن طولون، فنزل الرقة منتويًا الإجهاز على قوة أحمد. واستعد الطرفان للقاء الحاسم أتم استعداد سنة ٢٦٣هـ لكن موسى لما رأى قوة استعدادات أحمد وجديته التامة للمواجهة، ظل مقيمًا بالرقة، مترددًا في الإقدام للقائه مدة بلغت عشرة أشهر، حتى ثار عليه جنده، وطالبوه بالقتال أو الرجوع إلى العراق من حيث أتوا، لكن الحسم أتى على يد القدر، حين توفي موسى بن بغا في صفر سنة ٢٦٤هـ/ ٨٧٧م[1] ؛ وبذلك ثبتت أقدام ابن طولون في مصر.

كان أحمد بن طولون يتطلع بشغف لبسط نفوذه على بلاد الشام؛ حتى تتم الوحدة الطبيعة بين الولايتين، فيعظم ملكه، وتقوى دولته ويأمن هجمات الخلافة على مصر عن طريق الشام، وانتهز أحمد وفاة ماجور بدمشق وتولية ابنه عليّ مكانه، حتى أعلمه بالمسير إلى الشام، فرد عليه علي ردًا مسالمًا؛ مما شجع أحمد على السير بجيوشه في شعبان ٢٦٤هـ/ ٨٧٨م مستخلفًا ابنه العباس

= ولد سنة ٢٢٩هـ وعقد له المعتمد على مُضَر وقِنَّسرين والعواصم في ٢٠ من ربيع الأول ٢٥٨هـ وعقد له وليًا للعهد مع جعفر بن المعتمد ٢٦١هـ. وكان هو الحاكم الفعلي لدولة الخلافة، بيده الأمر والنهي، والحل والعقد، وإليه يرجع الفضل في القضاء على حركة الزنج، التي امتدت من سنة ٢٥٥هـ– ٢٧٠؛ ولذا لقبه الناس (الناصر لدين الله). توفى في شهر صفر سنة ٢٧٨هـ . (تاريخ الطبري ٩/ ٤٩٠، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ١٦٩–١٧٠) .

(١) الولاة: ص ٢١٧ – ٢٢٠ .

على مصر، جاعلاً أحمد بن محمد الواسطي مدبرًا له، ووزيرًا يشير عليه. دخل أحمد دمشق وحمص وأنطاكية، التي دخلها بعد حصار عنيف، ومعاونة صادقة من الأهالي سنة ٢٦٥هـ. هذا، وقد استعصت طرسوس على ابن طولون، ودافع عنها أهلها باستماتة، ولم يصر أحمد على فتحها، وأظهر الانهزام؛ كي يتردد ملك الروم في غزوها ويهاب شأنها، عندما يعلم أن أحمد فشل أمام مقاومتها.واكتفى أحمد بتولية وال عليها من قبله، ثم انتقل إلى الثغور[1] ، وكان ينوي المقام بها، ولعله كان ينوي غزو الروم، وإشباع ميول الجهاد في سبيل الله في نفسه. وكان – فيما يبدو– قد حاول غزو الروم، فأرسل إليه ملكهم هدايا كثيرة يستميله ويصالحه[2] . وأدرك ابن طولون أن هذه المصالحة دالة على المهادنة، لا عن احترام وود صادق، ولعل ابن طولون كان يتحين الفرصة المناسبة للانقضاض على بلاد الروم. وهكذا نجحت مساعي ابن طولون في ضم الشام إلى ملكه في مصر بعد إزاحة العقبات .

وفي أثناء مقام ابن طولون بالثغور وقع ما لم يكن بالحسبان حين ضَلَّل قادة السوء ابنه العباس، وجعلوه يخرج على طاعة والده في غيابه بالشام. وقد كان هؤلاء القادة يخشون بطش ابن طولون، وأغروا العباس بالقبض على الوزير أحمد بن محمد الواسطي، الذي تمكن من إبلاغ ابن طولون بما وقع من ابنه، ومن قادة السوء، وذلك قبل أن يقبضوا عليه، ولما علم العباس ومؤيدوه أن ابن طولون علم بكل ما أحدثوه من خيانة وعصيان؛ ازداد فزعهم وهلعهم، وعزموا على الخروج من مصر ومعهم الواسطي مقيدًا، وذلك في شعبان سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٩م.

(١) الولاة: ص ٢١٩–٢٢٠ .

(٢) قضى ابن طولون في مدينة طرسوس فترة شبابه، تأثر أثناءها بالجو الديني المسيطر على أهلها، ولعله نمت فيه نوازع الجهاد في سبيل الله، ونشر الإسلام هناك (سيرة ابن طولون، للبلوي ص١٠٧). وقد أورد المصدر نفسه كتاب ملك الروم إلى ابن طولون ص ١٠٩).

استخلف العباس أخاه ربيعة على الفسطاط، وزعم أنه متوجه إلى الإسكندرية؛ تلبية لأوامر أبيه. هذا، وقد انتقل العباس من الإسكندرية إلى برقة. ولما عاد ابن طولون إلى الفسطاط في الرابع من شهر رمضان سنة ٢٦٥هـ، أرسل رسالة مع القاضي بكار بن قتيبة وعدد من وجهاء مصر يستميل فيها ابنه ويعده خيراً، إن عاد إلى طاعته. ولما هم بالعود معهم، خشي المحرضون على أنفسهم، وألحوا عليه بالرفض، فأجابهم واستمر في غيه سادراً، وعزم على المسير إلى إفريقية؛ ليكون في مأمن من أبيه، وكتب إلى إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب زاعمًا له أن الخليفة المعتمد ولاه إفريقية، ويأمر ابن الأغلب بالدعاء له. وقد رد عليه ابن الأغلب رداً عمليًا، حين أرسل إليه جيشًا قويًا هزم العباس، وقتل كبار قواده فرجع خائبًا إلى برقة.

ولم يُطق ابن طولون السكوت على هذا التمرد الخطير الذي أصابه في مقتل من حيث كان يأمن، وأرسل ابن طولون جيوشًا كثيفة خرج بنفسه على رأسها؛ لإخضاع هذا الابن الثائر العاق، وذلك في ربيع الأول سنة ٢٦٨هـ/ ٨٨١م. لقى الواسطي ابن طولون بالإسكندرية بعدما تمكن من الهرب من محبسه، وطمأن قلب ابن طولون إلى أن هزيمة العباس في إفريقية قد أضعفت قواته. ونجح ابن طولون في إلحاق الهزيمة بابنه في برقة، وقام بأسره، وعاد الجميع إلى الفسطاط في رجب سنة ٢٦٨هـ/ ٨٨٢م[1]. هذا وقد لقي المحرضون جزاءهم، وتم بذلك القضاء على فتنة كلفت ابن طولون وقتًا وجهدًا، ومالاً وأعصابًا، كان في غنى عن إنفاقها في هذا السبيل، وكان يمكن توجيهها إلى مجالات نافعة مفيدة.

وبعث أحمد بن طولون بغلامه لؤلؤ في جيش إلى الشام، فاستماله الموفق، وانساق وراءه لؤلؤ، وانضم إلى الحزب المعادي لسيده أحمد بن طولون في

(١) تاريخ الطبري ٩/ ٥٤٥، ٦٠٢، وسيرة ابن طولون، للبلوي ص٢٤٤ وما بعدها، والولاة ص ٢٢٠-٢٢٤ .

أواخر سنة ٢٦٨هـ/ ٨٨٢م[1]، وكانت تلك ضربة مؤثرة قاصمة لأحمد بن طولون؛ إذ فقد جيشًا ضخمًا وقائدًا مغواراً.

وتلقى ابن طولون طعنة أخرى نافذة، حينما ثار أهل طرطوس على عامله، فاضطر لإخماد هذه الثورات، وخرج على رأس جيش في صفر ٢٦٩هـ، وأمر عامله عليها خلفًا الفرغاني بالقبض على يازمان الخادم، الذي كان- فيما يظهر- يحرض الأهالي ضد ابن طولون. وحاول عامل أحمد القبض عليه، لكن الأهالي خلصوه منه، وأخرجوا خلفًا من طرسوس، وولوا عليهم يازمان. ولما وصل أحمد إلى دمشق عازمًا على السير لمحاربة أهل طرسوس، تلقى كتابًا من الخليفة المعتمد يبلغه فيه أنه صائر إليه، فانتظر أحمد قدومه. وبالفعل خرج المعتمد كأنه يتصيد، ثم ركب إلى الرقة. وعلم الموفق بالأمر فأبلغ إسحاق بن كنداج والي الموصل أن يستقبل المعتمد ويمنعه من لقاء ابن طولون. واحتال ابن كنداج عليه وعلى من ساروا معه، ورده إلى من سر من رأى في شعبان ٢٦٩هـ، فكافأه الموفق بأن ولاه مصر كذلك[2].

ولاشك أن الموفق كان ذكيًا لماحًا في تصرفه هذا؛ لأنه أدرك أن ابن طولون يستطيع أن يقنع المعتمد بالسير معه إلى مصر؛ فيتحول مركز الخلافة إليها؛ وعندئذ يستطيع ابن طولون السيطرة على مقاليد الأمور في الدولة الإسلامية كلها، ويحظى بتأييد العامة ومناصرتهم بعد أن استحوذ على أمير المؤمنين. والحق أن الموفق كان يحقد على أخيه المعتمد ويحسده، ويرى أنه لا يصلح للخلافة، وأنه عابث لاه، وأن الموفق نفسه أولى منه بها، لكن الأتراك لا يطيقون خليفة قويًا معهم، يصدهم ويرفض أن يملوا عليه إرادتهم، ويسيروه على

(١) تاريخ الطبري ٩/ ٦١١، ٦٥٠، وسيرة ابن طولون للبلوي ص٣٠١، والولاة: ص٢٢٤ . وقد ذكر الكندي أن ذلك كان في جمادى الأولى سنة ٢٦٩هـ، والصواب ما ورد في تاريخ الطبري أنه كان في أواخر سنة ٢٦٨هـ؛ بدليل خروجه بعد ذلك في شهر صفر من العام التالي إلى الشام.

(٢) أي: عقد له على ولايتها، لكنه لم يتولها بالطبع؛ لأن ابن طولون قائم بها. (سيرة ابن طولون، للبلوي ص ٢٨٩، والولاة ص٢٢٥).

هواهم. وقد غاب عن الموفق أن يستميل ابن طولون، وبدلاً من سياسة التآمر ضده كان من الممكن أن يستثير فيه معاني الجهاد، ويشركه في حروبه مع الزنج(١) ؛ لإنقاذ الخلافة، فيشغله من جهة بما هو مشغول به، ويفيد من طاقاته وجيوشه وأمواله في القضاء على الزنج سريعًا.

وعلى كلٍّ، فقد أراد ابن طولون أن يرد الصاع صاعين، فعاد إلى دمشق، وأحضر القضاة والفقهاء والأشراف، وأعلمهم ما وقع على الخليفة المعتمد من غبن واضطهاد وأذى، وأن الموفق نكث العهد، وخان البيعة والأمانة، وأن الخليفة المسكين أسير محصور، ينتظر من يخلصه من قيود الموفق، وأن ابن طولون هو حامي حمى الخليفة، وأنه يحاول إنقاذه من براثن أخيه، وطالب بخلع الموفق من ولاية العهد، فوافقه العلماء على ذلك إلا ثلاثة، منهم: بكار بن قتيبة قاضي مصر. وبلغ الموفق صنيع ابن طولون، فأمر عماله على الأقاليم بلعنه على المنابر، واعتباره من المفسدين(٢) . وكما يقول الدكتور حسن أحمد محمود(٣) : نحن لا نشكك في إخلاص ابن طولون للخليفة ولبيعته التي في عنقه، لكن اختيار هذا التوقيت بالذات كان يهدف ابن طولون من ورائه إلى تسديد سهام قاتلة إلى الموفق، الذي دأب على محاولة عزله عن مصر باعتباره أكبر المنافسين له. إن الموفق كان له الأمر والنهي منذ سنة ٢٥٨هـ فلمَ اختار ابن طولون أن يعلن نُكْثَ الموفق في هذا الوقت بالذات ولم يعلنه من قَبل؟ إن ابن طولون يحاول تعويض ما سدد إليه من طعنات من ابنه، وغلامه، وأهل طرسوس.

أقول: إن الكلام على التوقيت مقبول، وهو محاولة جادة من ابن طولون لتعويض الضربات، التي توالت عليه، ويود أن يثأر للفرصة الذهبية التي ضيعها عليه الموفق، ولكني أرى أن ابن طولون ليس مخلصًا في وفائه للخليفة، إنما هو

(١) تاريخ الإسلام السياسي، للدكتور حسن إبراهيم حسن ٣/ ١٣-١٤ .

(٢) الولاة: ص٢٢٩ .

(٣) مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين، القسم الأول: (الطولونيون) للدكتور حسن أحمد محمود، ص. ٤١-٤٢ .

قائد يسعى السيطرة والحكم والتوسع، ومزيد من النفوذ، وقد اتخذ من حادثة المعتمد سببًا لإضعاف موقف الموفق أمام الناس، وإلا فأين كان منذ ٢٥٨هـ إلى ٢٦٩هـ؟! ثم هل لو قدر لابن طولون أن يأتي بالمعتمد إلى مصر، هل كان سيعطيه سلطاته كاملة على عبثه ولهوه؟! أكبر الظن أنه كان سيسلك مسلك الموفق أو يزيد.

وهكذا، وعلى كل حال، فقد مضى ابن طولون يحاول فتح طرسوس، وحاول استمالة واليها يازمان، لكنه لم يجبه، فزحف إليه ابن طولون بجيشه في جو بارد، ومطر شديد، وثلوج متراكمة، فغرق عسكر ابن طولون، واضطر إلى الرحيل، خاصة أنه قد عاودته علته، وسرعان ما مات بها في الفسطاط في العاشر من ذي القعدة سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م.

خمارويه بن أحمد بن طولون:

بايع الجند خمارويه بعد وفاة والده، وتمت المبايعة في العاشر من ذي القعدة سنة ٢٧٠هـ بالولاية على مصر. وقد سأل أخاه العباس البيعة، فرفض، فأشار عليه الواسطي بقتله(١) . ملك ابن العشرين عامًا زمام الأمور في مصر وتحت يده جيش قوي، ودولة فتية ثرية مستقرة داخليًا، بخلاف الوضع الخارجي الذي يحتاج إلى حسم مع الموفق وابن أبي الساج، وبلاد الثغور وغيرها؛ لذلك كانت فترة حكم خمارويه(٢) عبارة عن سلسلة متواصلة من الحروب الخارجية المستمرة، فلا يكاد يأتي خمارويه من حروب الشام إلى الفسطاط ويضع لأْمَتَه، حتى يرتديها مغادرًا الفسطاط بجيوش جديدة إلى هناك، وهكذا دَوَالَيْك .

بدأ خمارويه بإرسال جيش بقيادة الواسطي في ذي الحجة سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٤م إلى الشام، وجهز جيشًا آخر لسعد الأيسر بعثه آخر الشهر نفسه على

(١) الولاة: ص ٢٣٣، والنجوم الزاهرة (ط. دار الكتب) ٣/ ٤٩ .

(٢) ذكر المقريزي أخبار خمارويه في: الخطط ١/ ٣٢١-٣٢٢ .

مراكب كثيرة، لكن الواسطي لم يأمن لخمارويه، وربما كان ذلك خوفًا من بطشه به؛ لأنه أشار عليه بقتل أخيه العباس، وبدل أنْ يقاتل في الشام، اتصل بالمعتضد بن الموفق، وحقّر شأن خمارويه لديه وأغراه به، فأتت جيوش ابن الموفق وابن أبي الساج، وسيطرت على العواصم وقِنَّسْرين ودمشق، فخرج إليها خمارويه بنفسه في العاشر من صفر سنة ٢٧١هـ/ ٨٨٤م، والتقوا بفلسطين، وحلت الهزيمة بجيش خمارويه- في البداية- على كثرة جنده وعتاده، وفر يقصد الفسطاط، لكن سعداً الأيسر كمن لجيش ابن الموفق، وفاجأه وهزمه، وعاد الأيسر والواسطي معًا، فدخلا دمشق، ودَعَوا لخمارويه بها، ونجح خمارويه في هزيمة إسحاق بن كنداج سنة ٢٧٣هـ/ ٨٨٦م، وظل يتبعه حتى سر من رأى[1].

واتجه خمارويه إلى سياسة جديدة هي سياسة الوفاق والمصالحة وهو في مركز القوة، فصالح ابن كنداج وتصاهرا، كما صالح المعتضد صلحًا، كتبه الخليفة المعتمد وأخوه الموفق وابنه المعتضد، وقرروا فيه السماح لخمارويه بولاية مصر هو وأولاده مدة ثلاثين سنة. وهكذا انتهت العداوة مع الموفق، ودعا له خمارويه على المنابر سنة ٢٧٣هـ/ ٨٨٦م[2]، وجريًا على السياسة نفسها صالح خمارويه يازمان الخادم، حتى دعا له يازمان على المنابر في طرسوس؛ إذ نجح خمارويه في استمالة يازمان والتلطف إليه، وبعث إليه بثلاثين ألف دينار، وخمسمائة ثوب، ومثلها من الدواب، بالإضافة إلى سلاح كثير، وذلك سنة ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م[3].

هذا، وقد مات الموفق سنة ٢٧٨هـ/ ٨٩١م، وبعده توفي المعتمد في ٢٠من رجب سنة ٢٧٩هـ، وبويع ابن الموفق بالخلافة، فقدم له خمارويه الهدايا، وجدد الخليفة العقد له ولأولاده من بعده، فامتد سلطان خمارويه من الفرات إلى برقة

(١) تاريخ الطبري جـ١٠ ص٨، والولاة: ص ٢٣٥-٢٣٦ .

(٢) المصدر السابق: ص ٢٣٧-٢٣٨ .

(٣) السابق: ص٢٣٩، والنجوم (ط. دار الكتب) ٣/ ٧٦ .

غربًا، ومن آسيا الصغرى شمالاً إلى النوبة جنوبًا. وقد وافق خمارويه أن يدفع للخلافة مائتي ألف دينار عن فترة مضت، وأن يلتزم بأداء ثلاثمائة ألف سنويًا بعد ذلك[1].

ولجأ خمارويه إلى أسلوب الزواج السياسي؛ ليوطد علاقته بالخلافة ويأمن جانبها، فعرض ابنته قطر الندى على ابن الخليفة المعتضد، لكن المعتضد تزوجها لنفسه في ربيع الآخر سنة ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م. ولم يمهل القدر خمارويه طويلاً بعدها؛ إذ قتل في دمشق على يد خادمه في الثامن والعشرين من ذي القعدة سنة ٢٨٢هـ/ ٨٩٦م.

ويلاحظ على عهد خمارويه أنه مملوء بالحروب الكثيرة، ويعج بمظاهر البذخ والإسراف الشديد في النفقات، ويتهم بالسذاجة في تعامله مع الخلافة؛ إذ وافق خمارويه- وهو منتصر- على دفع ضريبة سنوية كبيرة، إلى جانب ما تكلف حفل زواج ابنته قطر الندى من الخليفة المعتضد؛ مما أفقر خزانة الدولة الطولونية، وجعلها على وَشْك الإفلاس[2]، ولم نسمع عن إنجاز، أو إصلاح داخلي قام به خمارويه، وإنما يورد لنا الطبري في (تاريخه) أخبارًا عن محن طبيعية زادت مصر فقرًا بعد أن تسبب حمق خمارويه في إفقارها، وكأن الدولة الطولونية تسعى بنفسها نحو الفناء. لقد هز مصر زلزال عنيف مدمر سنة ٢٧٢هـ خرب المساكن والمسجد الجامع، حتى بلغت الجنائز في يوم واحد ألف جنازة[3]، وغارت مياه النيل في مصر، وارتفعت الأسعار تبعًا لذلك سنة ٢٧٨هـ[4]، ولم تذكر لنا المصادر ما اتخذ من إجراءات لمواجهة آثار هذه الكوارث الكونية الخطرة.

(١) الولاة: ص ٢٤٠، والخطط ١/ ٣٢١، والنجوم (ط. دار الكتب) ٣/ ٦٢-٦٣، ٨٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٤٦-٤٤٨ .

(٣) تاريخ الطبري ١٠/ ١٠ .

(٤) السابق: ١٠/ ٢٣ .

تـعـد فترة مـا بعد خـمارويه فـترة صـراع داخلي بين زعامـات الجند داخل صفـوف الجيش في مصر، ولم نجـد مَن خلفاء الطولونيين من يعيـد الأمور إلى نصابها، أو تكون له القدرة القيادية لضبط الأمور، والسيطرة علي مجرياتها.

ولي (أبو العسـاكر جيش بن خـمـارويه مصـر في ٢٩ من ذي القـعـدة سنة ٢٨٢هـ، وقد تذكر له طائفة من الجند، وقام بخلعه كل من أحـمد بن طغان والي الثـغر، وطُغْج بن جُفّ والي دمـشق. وقد وثـب جيش بعـمه نصر بن أحـمـد بن طولون فقتله، فوثب الجيش به وخلعه. وقد بايع الجند والفقهاء والمحدثون والقراء أخاه هارون، الذي سجن أخاه جيشًا حتى مات في محبسه بعد أيام من دخوله إياه سنة ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م بعد ولاية استمرت تسعة أشهر، واثني عشر يومًا.

هارون بن خمارويه:

كره ولايـته بعض الجند، وكـاتبوا ربيـعة بن أحـمد بن طولون أن يلـي أمر مصـر، فقـدم من الإسكندرية، حيث كان يقيم، على رأس جيش جـمعـه من البحـيرة وغـيرها، وقـاتل به جيش هارون لكنه هزم، ووقع في الأسـر، ثم جلد بالسياط حتى مات[1].

وهكذا مضت البـلاد بلا رابط ولا ضابط ولا قيد يحكمـها، وانعكس ذلك على الرعـية، فـعمت الفوضى في تنفـيذ الأحكام، ولدينا مـثال ذكـره الكندي مفاده أن رجلاً يدعى ابن قريش كان متشيعًا، أعلن على الملأ أفضلية آل رسول الله ﷺ على كل من سواهم، فـهجم عليه الناس، وأوسـعوه ضربًا بالسـياط حتى هلك، وذلك سنة ٢٨٥هـ[2].

ومن الطبيعي أن تتطلع الخلافة لرد مصر إلى حظيرتها بعد أن ضعف شأنها ووهنتْ قواها، وتنـازع الجند بها. وفي ذلك الوقت توفي الخليـفة المعـتضد سنة

---

(١) الولاة: ص ٢٤٣.

(٢) المصدر السابق: ص٢٤٣.

٢٨٩هـ، وولي ابنه محمد المكتفي بالله، وكان هارون بن خمارويه قد شارك واليه على دمشق طغج بن جُفّ صدّ هجمات القرامطة بالشام سنة ٢٨٩هـ لكنه تعرض لهزائم عديدة، وحوصر في دمشق إلى أن جاءه جيش بدر الكبير غلام ابن طولون، فهزم القرامطة قرب دمشق، وقتل زعيمهم يحيى بن زكرويه(١).

ويبدو أن عدم استقرار مصر أضعف هارون بن خمارويه حتى إنه عرض على الخلافة سنة ٢٨٦هـ دفع مبلغ ٤٥٠ ألف دينار سنويًا مقابل تجديد ولايته على مصر والشام، وتنازله للخليفة عن أعمال العواصم وقنسرين(٢).

بعث الخليفة المكتفي بجيش يقوده محمد بن سليمان الكاتب؛ للاستيلاء على مصر مستغلاً الضعف الشديد الذي عانته الدولة الطولونية خاصة بعد خسائرهم الفادحة، أمام القرامطة(٣).

نجح الجيش في الطريق إلى مصر في السيطرة على البلاد التابعة لها، ودخل في طاعته بدر الحمامي في الشام، ودخل غيره من القواد في طاعة الخلافة كذلك. ووصل الجيش إلى مصر، ونشبت معارك ضارية بين الفريقين، ولم يكن هارون بن خمارويه على وعي بالمسئولية، فسكر والحرب دائرة، وأغضب أهله لإصراره على رحيلهم معه أثناء الحروب؛ لئلا يسيطروا على الفسطاط في غيابه؛ مما أدى إلى تآمر عَمَّيْه: شَيْبَان، وعَدِيّ ابني أحمد بن طولون عليه، وقتلاه في التاسع عشر من صفر سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م عن عمر بلغ ثمانية وعشرين عامًا، وبعد ولاية ثماني سنوات وثمانية شهور(٤).

ولي شيبان بن أحمد بن طولون مصر في العشرين من صفر سنة ٢٩٢هـ

(١) تاريخ الطبري ١٠/٩٥.
(٢) المصدر السابق ١٠/ ٧٠-٧١.
(٣) السابق ١٠/١١٦.
(٤) السابق ١٠/ ١١٥ -١١٦، وصلة تاريخ الطبري، لعريب بن سعد ص ١٤، والولاة ص٢٤٤-٢٤٦، وسير أعلام النبلاء ١٤/١٧-١٨.

والدولة الطولونية تترنح تحت ضربات الخلافات والثورات والمنازعات الداخلية من جهة، وقدوم جيش محمد بن سليمان من جهة أخرى. وكان طغج بن جف وفائق مولى خمارويه بلغهما هما وغيرهما من كبار القادة ما فعله شيبان، فكاتبوا واحدًا من كبار رجال محمد بن سليمان وهو الحسين بن حمدان، وسألوه الأمان، وحرضوه على المسير إلى الفسطاط.

قدم محمد بن سليمان مصر، واستسلم شيبان وإخوته، وبقية أهله، فأمَّنهم محمد بن سليمان. وهكذا انتهت ولاية شيبان بعد اثني عشر يومًا من بدايتها، وبانتهائها سقطت الدولة الطولونية، وقام محمد بن سليمان بتخريب القطائع(١)، وقام أصحابه بنهب الفسطاط، ودُعِي للخليفة المكتفي على منابر مصر، واستخلف محمد بن سليمان أحد رجاله في مصر، وجعل طغج بن جف على قنسرين، وأخرج معه بعض جند ابن طولون، وأخرج الأعراب عن مصر، وجعل بدرًا على دمشق، وأخذ معه عشرين فردًا هم ولد ابن طولون، كما سرح قواد بني طولون خارج مصر تدريجيًا، حتى عفت منهم الديار(٢).

وهكذا اندثرت الدولة الطولونية بعد فترة ازدهار، شهدها عهد مؤسسها أحمد بن طولون، ثم كانت بداية الانحدار على يد خمارويه، ثم الفوضى والاضطراب على يد خلفائه بعده.

وأخيرًا، فلا أملك إلا أن أردد مع العلامة ابن خلدون ما قاله في بدايات الدول ونهاياتها، مما ينطبق على الدولة الطولونية من أنهم خرجوا على العباسيين لما ضعفت خلافتهم، وبعد ذلك استفحل خطر الطولونيين وانفردوا بالمجد والسلطان، وأقاموا ملكًا قويًا، ثم وقع التصارع والتقارع على السلطة،

(١) ذكر المقريزي في الخطط ١/ ٣٢٢-٣٢٦ الكثير من قصائد الشعر، التي بكى فيها الشعراء القطائع بعد تخريبها، وآثار الطولونيين ومظاهر حضارتهم بعد أن استحالت أثرًا بعد عين.
(٢) تاريخ الطبري ١٠/ ١١٨-١١٩، والولاة ص٢٤٧-٢٤٨.

إلى جانب روح البذخ والإسراف التي زادت الفقير فقرًا، وبددت أموال الغني، فاستحال فقيرًا مفلسًا، ثم كثرت الضرائب، وحل العجز بالدولة؛ مما أدى إلى الانهيار الكامل، والاندثار التام، فاختفت إلى الأبد من الوجود[1] .

تقويم دولة ابن طولون:

نحاول أن نطل إطلالة مركزة على (شخصية أحمد بن طولون) ودولته من زوايا عديدة، فنقوم – في البداية- بإرساء أساس الحكم عليه، ثم بيان إيجابياته، وأخيرًا سلبياته، وخلاصة الرأي فيه.

أولاً: أساس الحكم التاريخي:

يقصد بالحكم التاريخي ما يطلقه المؤرخ من نقد أو حكم على حاكم من الحكام، أو قائد من القواد، أو موقف من المواقف، أو عصر من العصور، وهذا الحكم يجب أن ينأى به المؤرخ الحق عن التعصب والهوى، وأن يؤسسه بعد حسن تصور الأمر الذي يصدر حكمه عليه، وبعد دقة في النقل، وتَحَرٍّ في الوقائع، وتثبت وأناة وطول تحقيق وتمحيص، وأن يؤدي ذلك الحكم بلغة مهذبة، ولسان عف. ويحتكم المؤرخ المسلم إلى ميزان الشرع الحكيم، يزن به أعمال كل من يدرس سيرته، فيُمْدَح الشخص إذا أحسن وعدل وخدم أمته، ويُذَمّ إذا كان غير ذلك، دون جنوح إلى تبرير الأخطاء، وإحسان الظن في غير موضعه؛ حفاظًا علي المنهج الإسلامي.

ثانيًا: من إيجابيات دولة ابن طولون:

١- الاستقرار الداخلي: وهذه سمة بارزة من سمات عهد أحمد بن طولون، ولها عدة مظاهر، منها:

أ- حفظ الأمن والنظام: وذلك واضح من خلال اهتمامه بتعيين قائد من قواده

(١) مقدمة ابن خلدون (طبعة مكتبة نهضة مصر) ٢ / ٥٤٢، ٧٦٤ .

الثقات على الشرطة السُّفْلانيّة (الفسطاط)، وقد أوصاه أن يرفق بالرعية، وينشر العدل بينهم، ويقضي حوائجهم، ويتفقد مصالحهم، ويظهر إكرامهم وصيانتهم؛ ففي هذه المنطقة يسكن عوام الناس وصالحوهم، وابن طولون يرجو دعاءهم؛ ففيهم القراء، والمتهجدون، والذاكرون. وكان يأمر صاحب الشرطة الفَوْقَانيّة (العَسْكَر) أن يشدد على رعيته ويرهبهم، ويغلظ عليهم؛ لكثرة ما يرتكبون من مظاهر اللهو والعربدة والفسوق (من غناء ، وسُكْر، ونحوهما)[1] .

ب- قمع ثورات الثائرين، والقضاء على المفسدين: وذلك واضح من خلال قضائه على حركة (ابن الصوفي)، الذي وردت الأنباء سنة ٢٥٦هـ بدخوله (إسنا) بالصعيد، وقيامه بنهبها والإفساد في نواحيها[2] ، وكذلك أرسل الجيوش المتتالية، التي نجحت في القضاء على رجل ثائر بالصعيد من بقايا أصحاب ابن الصوفي، يكنى (أبا روح) كان قد قطع الطريق، وأخاف السبيل[3] . وتعرض ابن طولون لانتقاص سيادة دولته، عندما ثار أهل برقة، ووثبوا بأميرهم (محمد ابن فروخ الفرغاني)، وأخرجوه منها، فأرسل إليهم الجيوش تترى، وعلى رأسها غلامه لؤلؤ، حتى أعادوا الهدوء هناك، واستعاد ابن طولون سيطرته عليها، وعادت جيوشه مظفرة، تسوق الأسرى، وتطوف بهم في شوارع مصر؛ مما كان له أكبر الأثر في تغلغل هيبة ابن طولون في صدور الناس كبارًا وصغارًا[4] .

ج- القضاء على نفوذ ابن المدبر صاحب الخراج وشقير صاحب البريد:

عانى المصريون من ظلم ابن المدبر وتعسفه وتجبره في تحصيل الخراج، وفي

(١) سيرة أحمد بن طولون، للبلوي ص ٢٠٥-٢٠٦ .
(٢) المصدر السابق: ص ٦٢-٦٣ .
(٣) السابق: ص٦٧ - ٦٨ .
(٤) السابق: ص ٧٠-٧٢ .

فرض ضرائب جديدة اقترنت به، أثقلت كاهل الناس[1]؛ وقد كان من الممكن إذا استمر هذا الرجل في منصبه أن تنفجر ثورات الناس حَنَقًا عليه؛ فرأى ابن طولون بثاقب فكره أن إزاحته عن ذلك المنصب تحقق له وللناس فوائد جمّة، منها: أنه يهدئ نفوس الناس وثائرتهم، ويتقرب إليهم، ويكتسب حبهم وودهم (خاصة أنه خفف عنهم الضرائب، ورفق بحالهم)[2]. ومن جهة أخرى يتخلص من منافس خطير يقاسمه حكم مصر، بل يتفوق عليه، وله نفوذ كبير. ولذلك حرص ابن طولون على تجريده من مظاهر هيبته وسلطانه[3]، حتى اضطره إلى ترك مصر[4]. ولما علم ابن طولون بتدابيره ومكاتباته هو وشقير إلى الخلافة يحرضانها عليه، ويحذرانها سعيه إلى الاستقلال عنها[5]؛ احتال على ابن المدبر، إلى أن حبسه في مصر حتى الموت[6]. وعرض شقيراً للعقاب البدني والنفسي الرهيب، حتى تم الإجهاز عليه[7]؛ وبذلك أراح نفسه من شرهما وخطرهما قبل أن يريح الناس منهما (ضرائب، وتجسس). وهكذا التقت رغبة المصريين ومصلحتهم مع رغبة ابن طولون ومصلحته الشخصية في الاستئثار بحكم مصر، وتولى خراجها، والانفراد بامتلاك مقاليد الأمور بها.

(١) حول ما استحدثه ابن المدبر من ضرائب في مصر لم تكن معروفة قبله، استحدثها منذ تولية الخراج بعد سنة ٢٥٠هـ (وهي- بخلاف الخراج الذي يؤدى سنويًا- ضرائب هلالية تؤدى شهريًا على المراعي والمصايد والنطرون، راجع: (سيرة البلوي) ص٤٣.

(٢) ذكر المقريزي: أنه لما أضاف المعتمد لأحمد الخراج والثغور الشامية إلى جانب ولاية مصر، تنزه عن أدناس المعاون والمرافق (الاسم الذي أطلقه ابن المدبر على ضرائبه الإضافية)، وكتب بإسقاطها في جميع أعماله، وكانت تبلغ بمصر خاصة مائة ألف دينار سنويًا. (المقريزي: الخطط ١/ ١٠٣-١٠٤).

(٣) سيرة ابن الداية ص٧٨، وسيرة البلوي ص ٤٥.

(٤) سيرة ابن الداية ص٨٤، وسيرة البلوي ص٥٩-٦٠.

(٥) سيرة البلوي ص٥٨، والخطط ١/ ٣١٦.

(٦) سيرة البلوي ص ١٧٥-١٧٨.

(٧) المصدر السابق: ص٥٨-٥٩.

٢- صفاته الطيبة وأثرها في مصر:

لاشك أن نشأة أحمد بن طولون الدينية، وإقامته في مناطق الثغور (خاصة طرسوس) مرابطًا في بداية حياته العسكرية[1]، كل ذلك جعله يتمتع بمجموعة من الخلال الطيبة والصفات الحميدة، التي كان لها أثرها في نفوس المصريين تجاهه. ومن هذه الشمائل: شجاعته وشهامته[2]، وحفظه القرآن ورعايته حفظة كتاب الله[3]، ورحمته ورفقه برعيته[4]، وعدالته[5]، وزهده[6]، وتقشفه واقتصاده في النفقات[7]، وكثرة إحسانه وصدقاته[8]، وجديته ويقظته وسهره على مصالح الرعية[9]، ورعايته وتوقيره العلماء[10].

(١) سيرة ابن الداية ص٧٤، وسيرة البلوي ص٣٦.

(٢) من أبرز أمثلة ذلك: صيانته الخليفة المستعين، وحسن قيامه بشأنه لما نفاه المعتز- بعد خلعه- إلى (واسط)، ثم رفضه أن ينفذ الأوامر بقتله مقابل أن يولى على واسط. (حول موقف ابن طولون الشجاع، وما آل إليه مصير المستعين من القتل على يد (سعيد الحاجب)، وثناء الناس على ابن طولون لعدم نكثه بيعة المستعين، وعدم اشتراكه في إراقة دمه (وإن لم يستطع أن يمنع قتله)، يراجع: (تاريخ الطبري ٩/ ٣٦٢-٣٦٣، وسيرة ابن الداية ٧٥-٧٦، وسيرة البلوي ٤١، وحضارة مصر الإسلامية في العصر الطولوني، للدكتور حسن محمود ص٢٩-٣١). وعلى كل حال، فقد كان ابن طولون سلبيًا لما سلم المستعين للقتل بيده وهو يعلم، ثم عاد بعد مقتله للصلاة عليه، ومواراته التراب. ولعله رأى أنه مهما حاول تجنيبه الموت، فلن يستطيع الوقوف أمام قوة الأتراك والخليفة الجديد (المعتز) وأمه، فآثر الاكتفاء بعدم تلويث يده بقتله.

(٣) سيرة البلوي ١٨٦-١٨٩.

(٤) السابق ١٩٩-٢٠١.

(٥) من أمثله عدله: معاقبته أحد قواده لاعتدائه على راهب قبطي (السابق ٢٠٦-٢٠٨)، وكان يحرص على الجلوس للمظالم يومين في الأسبوع (الخطط ٢/ ٢٠٧).

(٦) كانت تُهْدَى إليه الجواري الجميلات، فيقوم بإهدائهن إلى غلمانه؛ زهدًا في المتع والملاذ، فلذته بحراسة دولته، وشغله بمصالح ومتطلبات جنده. (سيرة ابن الداية ٩٣-٩٤).

(٧) المصدر السابق ١٣٣.

(٨) سيرة البلوي ص٩٨، ١٩٨ - ١٩٩، وغيرها.

(٩) السابق ١٩٩-٢٠٠.

(١٠) مثل: الربيع بن سليمان المرادي صاحب الشافعي (الخطط ٢/ ٢٦٥-٢٦٦)، وبكار بن قتيبة القاضي الحنفي (سير أعلام النبلاء) ١٢/ ٦٠٠-٦٠١، (وسوف ينقلب على بكار، عندما يرفض لعن الموفق).

٣-استقلاله بمصر ورعاية مصالحها ضد أطماع الموفق:

لا يعني ذلك أننا نشجع انسلاخ وانفصال ولاياتِ الخلافة الإسلامية عنها، ونعده من إيجابيات (أحمد بن طولون) وحسناته، إنما نقصد مفهوم الاستقلال كما عرفه ابن طولون، وهو أن يحكم ولايته حكمًا شبه مستقل، يرعى مصالحها، ويوفر حياة طيبة لأهلها، ويقوم بمشروعات تهدف إلى خير مواطنيه، ثم هو في الوقت نفسه يعترف ببيعة الخلافة، وسلطة الخليفة الروحية، ويؤدي ما عليه من خراج سنويًا لعاصمة الخلافة بما لا يضر مصالح شعبه واحتياجاته (من مأكل، ومشرب، وملبس، وجيش قوي يدافع عنه)[1] .

وقد حقق ابن طولون هذا المفهوم الصحيح، لكن أعداءه - حسدًا من عند أنفسهم- سخطوا عليه، ودبروا له المكايد في عاصمة الخلافة، وحرضوا عليه الخليفة (المعتمد)، حتى كتب إليه مرة بالاستخلاف على مصر، والقدوم إلى عاصمة الخلافة؛ لتدبير شئونها[2] . وقد كان (الموفق) أخو الخليفة (المعتمد) ألد أعداء ابن طولون، ولطالما وقف في طريق قوة ابن طولون ودولته النامية، وسلك في سبيل ذلك طرقًا ووسائل متعددة، منها: مكاتبته أن يرسل إليه خراج مصر أضعافًا مضاعفة[3] ، وإصداره أوامره- وقد كان يعد الخليفة الحقيقي؛ لانشغال أخيه باللهو والمتع- إلى موسى بن بغا بتسيير الجيوش نحو مصر، وعزل ابن طولون عنها[4] ، وتدبير المؤامرات عن طريق مكاتباته مع جواسيسه إلى قادة جند ابن طولون يستميلهم نحوه، ويغريهم بولاية مصر بدلاً من ابن طولون، واحتضانه لؤلؤاً غلام ابن طولون الخارج عليه[5] ، وإفشاله محاولة ابن

(١) حول طبيعة الاستقلال السياسي لدى ابن طولون. راجع: (مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين)، للدكتور حسن محمود (القسم الخاص بالطولونيين).

(٢) سيرة ابن الداية: ص ٨٣، وسيرة البلوي ص ٥٦-٥٧ .

(٣) سيرة ابن الداية ص٨٩، وسيرة البلوي ٨١-٨٢ .

(٤) سيرة ابن الداية: ص٨٨، وسيرة البلوي ٨٥-٨٦ .

(٥) سيرة ابن الداية: ص١٢٦، وسيرة البلوي ص٢٧٦ .

طولون نقل الخلافة العباسية إلى مصر عن طريق إحضار (المعتمد) إليها[1] ، وإجباره أخاه (المعتمد) على لعن ابن طولون واعتباره خارجًا على الخلافة[2] .

وعلى كلٍّ، فقد استطاع ابن طولون الحفاظ على دولته أمام هذه المحاولات المستميتة للنيل منه، فلم يرسل ما أراد الموفق من أموال[3] ، وخدمه القدر بوفاة موسى بن بغا وغيره ممن طمعوا في ولاية مصر، ونجح في الإيقاع بكافة الجواسيس الذين عملوا لحساب الموفق[4] ، ونجح في التظاهر بمناصرة المعتمد أمام طغيان أخيه وحجره عليه، وقهره إياه، وقام بلعن الموفق على المنابر، وقطع اسمه من الخطبة، وجنَّد من العلماء والقضاة والشعراء من دافعوا عن سياسته، وأيدوا فعلته[5] ، ولم يستطع الموفق النيل من دولته حتى وفاته.

٤- مشروعاته الحضارية في مصر:

هذه هي الثمرة الحقيقية التي جناها شعب مصر، ومثلت في بعض نواحيها الأثر الباقي لدولة ابن طولون حتى بعد انهيارها وتحويلها إلى أثر بعد عين. لقد كان الموفق حريصًا على استنزاف ثروات مصر؛ لتمتلئ خزائن الخلافة، ولا يهمه بعد ذلك أن يجوع أو يظمأ، أو يَعْرَى شعب مصر. لكن ابن طولون جعل خير مصر لأهلها. وقد نجح الرجل بدهائه وخبرائه ومهارته في القيام بعدد من الإنجازات، التي ظلت مرتبطة باسمه على مر الزمان. لقد انتهز فرصة أمر المعتمد له بالاستعداد لمجابهة (عيسى بن الشيخ) في بلاد الشام، وأوامره إلى ابن المدبر بإطلاق النفقات له، حتى كون جيشًا ضخمًا، وجدد آلات حربه، حتى بلغ مائة ألف جندي، معهم أفضل الأسلحة في ذلك

(١) سيرة البلوي ص٢٨٩-٢٩٤ .

(٢) السابق ٢٩٨- ٢٩٩ .

(٣) بل رد عليه ردًا مفحمًا قويًا مهددًا، أفزع الموفق وأرهبه (سيرة ابن الداية ص ٨٩-٩١) .

(٤) استطاع ابن طولون بذكائه وفطنته، وشدة حذره وتوجسه أن يوقع بكثير من جواسيس الموفق رغم تنكرهم (راجع سيرة البلوي ص١٢٢-١٢٨).

(٥) السابق ٢٩٤-٣٠١ .

العصر[1]، واهتم بالأسطول فعهد به إلى خبراء صناعة الأساطيل، ووفر لهم كافة الإمكانات اللازمة لإنشاء أسطول مصري يدافع عن سواحل مصر، ويغزو به الروم عن طريق بلاد الشام[2]، واهتم ابن طولون بتحصين جزيرة الروضة[3] سنة ٢٦٣هـ؛ تحسبًا لأي هجوم يجابه به من قبل النيل، واهتم بإقامة المشروعات العمرانية الزاهرة كإنشاء مدينة القطائع[4] وجعلها عاصمة لدولته، وإنشاء البيمارَسْتان[5]؛ لعلاج المرضى، وإنشاء مسجده الذي لايزال شاهداً على تقدم العمارة وفن البناء في زمانه[6].

٥- في مجال العلوم والمعارف:

أ- في مجال الحديث والفقه: ظهر في العصر الطولوني فقهاء لهم الأثر الأكبر في النهضة العلمية في مصر، وعلى رأسهم: محمد بن عبدالله بن عبدالحكم الفقيه الشافعي المالكي (ت٢٦٨هـ)، ولاشك أنه ظهر قبل ذلك العصر، لكن علومه ومعارفه وزعامته للمذهب المالكي تأكدت في ذلك العصر، كما نبغ الربيع المرادي تلميذ الشافعي الأثير (ت٢٧٠هـ)، ويونس بن عبدالأعلى الفقيه

(١) سيرة ابن الداية ٨٠، ٨٣، وسيرة البلوي ٥١ .

(٢) سيرة ابن الداية ص٩٤-٩٥، وسيرة البلوي ص ٨٧، ٢٠٨ .

(٣) سيرة ابن الداية ص٨٨، وسيرة البلوي ص ٨٦-٨٧، والخطط ١/ ٣٩ .

(٤) المصدر السابق ١/ ٣١٣ .

(٥) كلمة فارسية معربة بمعنى (المستشفى). (المعجم الوسيط جـ١ ص٨٢). أما (المارستان)، فبمعنى المستشفى، أو المصَحَّة. (المرجع السابق ٢ / ٨٩٨). وكان ابن طولون مهتمًا بتوفير الأدوية والعقاقير الرئيسة في مستشفاه، الذي أنشأه سنة ٢٥٩هـ وأنفق عليه ٦٠ ألف دينار (سيرة البلوي ص ١٨٠، وصبح الأعشى ٣/ ٣٤٣، والخطط ٢/ ٢٦٥). ويمكن مراجعة المزيد من إجراءات استقبال المرضى، ونوعيات المعالجين في المارستان، ووسائل العلاج، ودرجة الاهتمام بالمرضى خاصة المجانين منهم، وتفقد ابن طولون أحوالهم بنفسه في: (الخطط ٢/ ٤٠٥-٤٠٦).

(٦) يراجع ما يتصل ببناء جامع ابن طولون وفنه المعماري، ونفقاته (٢٠ ألف دينار)، وما في آخره من أدوية وعقاقير، وطبيب يعالج ما قد يطرأ على المصلين في الصلاة، ووصف بنائه (الذي امتد من ٢٦٣-٢٦٥هـ) في: (سيرة البلوي ٣٥٠، والخطط ٢/ ٢٦٥-٢٦٦).

الشافعي جد المؤرخ ابن يونس المصري (ت٢٦٤هـ)، ولا ننسى القاضي والفقيه والمحدث الحنفي بكار بن قتيبة، الذي دخل مصر ٢٤٦هـ، وكانت له مواقفه العلمية والسياسية الشجاعة (ت٢٧٠هـ)، وكذلك وجد الفقيه والمحدث الطحاوي إمام المصريين وصاحب الإنتاج الفقهي الثري في مصر (ولد ٢٣٨هـ)، مثل: «المختصر في الفقه»، وغيره.

ب- في مجال اللغة والنحو: ظهر من النحاة في مصر بنو ولاد، وأشهرهم النحوي العبقري الوليد بن محمد التميمي، الذي يرجع أصله إلى البصرة، ونشأ في مصر، وأخذ عن الخليل بن أحمد، وتوفى سنة ٢٦٣هـ، وهناك محمد ابن ولاد التميمي الذي أخذ النحو والأدب على الدينوري، ووضع كتاب (المنمق في النحو)، وهناك صاحب كتاب (المهذب في النحو) العالم أحمد بن جعفر الدينوري (ت٢٨٩هـ). ولا ننسى النحوي اللغوي الكبير أبا جعفر النحاس (ت٢٧٢هـ) صاحب (معاني القرآن ومنسوخه)، و(أدب الكتّاب)، و(طبقات الشعراء)، وغير ذلك من المصنفات المفيدة.

جـ- في مجال الأدب: ظهر فن النثر جليًا منظوراً في ديوان الإنشاء على يد نخبة من الكتاب العظام، من أمثال: ابن عبد كان كاتب ابن طولون، وصاحب الكتاب المشهور الذي كتبه على لسان ابن طولون إلى ابنه العباس. وتولى ديوان الإنشاء لخمارويه الكاتب علي بن أحمد المادرائي، ثم إسحاق بن نُصَير العبادي.

د- في مجال التاريخ: إذا كان عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم المؤرخ المصري لم يشهد إلا ثلاث سنوات من حكم ابن طولون؛ إذ توفى ٢٥٧هـ؛ فقد عاصر الدولة الطولونية مؤرخان عظيمان كتبا أحداثها، هما: ابن الداية والبلوي اللذان عاشا خلال القرن الثالث الهجري، حتى نهاية العقد الثالث من القرن الرابع الهجري، وكتبا سيرة ابن طولون وخلفائه، وعاصرهما المؤرخ القبطي سعيد بن بطريق (ولد ٢٦٥هـ). وكان طبيبًا ماهراً في عصر ازدهرت فيه علوم الطب، وسائر المعارف الأخرى.

أما الشعر، فقد كان من الطبيعي ازدهاره في ولاية مصر المستقلة[١] ، خاصة أن أمراء الطولونيين وصفوا بالجود والكرم، وسعة العطاء، وتقريب الشعراء لمدحهم، ومنافسة الولايات الأخرى، فمدح الشعراء ابن طولون، وأيدوه في صراعه مع الموفق مثلاً، كما مُدح خمارويه ابنه في حربه مع ابن كنداج. هذا، إلى جانب مصاحبة الشعر للأحداث وتأريخه لها، وبكاء الشعراء ما حل بالقطائع بعد تدميرها، وما نزل بالطولونيين من قهر وإذلال.

ثالثًا: سلبيات ابن طولون:

أ- طبيعة الانفعالية الحادة، وظلمه وبطشه واستبداده:

لعل أصل ابن طولون التركي كان له دخل في مزاجه الحاد وطبيعته المتهورة، لكن التدين والصلاح الذي وصف به كان من المفروض أن يهذب طبيعته، وبعد أن صار حاكمًا لمصر من المفترض أن يكون حليمًا رحب الصدر، لا يعرف قلبه ضغنًا ولا حسدًا، لكن الواقع يشهد بتسرعه في إصدار العقاب الشديد على أتفه الأسباب[٢] . لقد كان جزاء ابن عمار على تمحيصه النصح لابن طولون أن رده إلى السجن ثانية؛ لأنه لا يجوز لمن في مثل عقليته- رغم حالته المزرية في السجن- أن يبقى طليقًا حرًا[٣] ، فهو خطر على ابن طولون، فينبغي- في رأيه- أن يئد كل ذي موهبة ومكانة؛ حتى لا ينافسه أحد! ومن المشهور المتواتر وجود مُطْبِق (سجن تحت الأرض) يقاسي ويلاته المحبوسون،

(١) تعددت مواقف الشعراء من الطولونيين؛ فمنهم من كان مؤيدًا (الولاة ص٢١٦-٢١٧)، ومنهم من كان معارضًا لابن طولون ص ٢٢٧-٢٣٣ ، ومنهم من كان مبتهجًا بانتصار الخلافة على الطولونيين (تاريخ الطبري ١٠ / ١١٨-١١٩، وصلته لعريب بن سعد ص ١٦-١٧، والولاة ص ٢٤٨-٢٥٢ ، ومنهم من كان باكيًا دامعًا على زوال الطولونيين (المصدر السابق ص٢٥٢-٢٥٧).

(٢) وذلك عندما هم بإيقاع خمسمائة جلدة بالسياط على خطيب الجمعة؛ لأنه نسي الدعاء له آخر الخطبة، لولا أن تداركته رحمة من ربه، فعاد إلى أعلى المنبر، واعتذر عن النسيان، وبالغ في الدعاء، فأبدلت له العقوبة دنانير، وهنأه الناس على السلامة. (سيرة البلوي ص ١٥٩).

(٣) سيرة ابن الداية ص ١٢٧-١٢٨، وسيرة البلوي ص٢٨١-٢٨٦ .

الذين مات منهم في حبس ابن طولون حوالي ثمانية عشر ألفًا. ولاشك أنهم ماتوا من التعذيب، والحر القائظ صيفًا، والبرد القارس شتاء، ولاشك أن منهم المظلومين والمصادَرين.

لقد حكم ابن طولون دولته حكمًا بوليسيًّا بغيضًا قائمًا على التجسس في كل شيء[١] ، وإحصاء أنفاس الناس[٢] ، وإلقاء الرَّوْع في قلوبهم، حتى كان الناس يخيفون به الصبيان علي حد تعبير البلوى[٣] . ولا أستبعد أن تكون تلك القسوة والجفاء والغلظة وسوء الظن، حتى تجاه كبار غلمانه وقواده، وربما أولاده، كان لها دخل في خروج ابنه (العباس) عليه، تؤيده جماعة من كبار كتاب وقواد ابن طولون[٤] ، ولا أستبعد أن يكون خروج لؤلؤ غلامه بالأموال والجيوش، وانضمامه إلى (الموفق)[٥] علامة على ما كان يعتور هؤلاء المقربين من فزع رهيب، أن ينالهم منه أذى شديد، فكانوا يهربون عند أول بارقة أمل تلوح لهم.

وإذا كنا ذكرنا من قبل رعايته للعلماء واحترامه إياهم، فإنه - في الوقت نفسه- كان لا يتحمل نقدًا من أحد، ولو كان من بعض الصوفية[٦] ، وكان يستجيب إلى وشايات بعض الناس بالعلماء ولا يتورع عن حبسهم، ولا

(١) يمكن مراجعة نماذج كثيرة من تجسسه حتى على أقرب معاونيه، وأخلص غلمانه في (سيرة البلوي ص ١١٥-١١٨، ١١٩، ١٢٢، ٢١٠).

(٢) وظل ذلك قائمًا حتى وهو في مرض وفاته، يقوم بتنفيذ سياسته كتابه ومعاونوه (السابق ص٣٣٤-٣٣٦).

(٣) السابق: ص ٧٢ .

(٤) يمكن مطالعة تفاصيل خروج العباس، ودور القادة والكتاب المحرضين له على هذا الخروج، وسر التمادي في العصيان إلى آخر الشوط في: (سيرة البلوي ص ٢٢٤ وما بعدها).

(٥) حول الأسباب السياسية، والاقتصادية لخروج لؤلؤ على سيده، الذي عامله باستبداد، وظروف وأحداث ذلك الخروج. راجع: (سيرة ابن الداية ص١٢٦، وسيرة البلوي ص٢٧٦).

(٦) بل يحول صراحته في الحق والنقد إلى اتهامات تنقلب عليه، ويجمع من الناس من يشهد عليه، وتكون العاقبة جلده بالسياط، والطواف به، وحبسه في المطبق. (سيرة ابن الداية ص١٠٩-١١٠، وسيرة البلوي ص ٢١٤-٢١٦)، وحبس ابن بنان الصوفي؛ لأنه أنكر عليه بعض الأشياء (حسن المحاضرة ١/ ٥١٢-٥١٣).

يرضى منهم إلا المداراة والتأييد، فإذا جابهه أحدهم بموقف معارض، قلب له ظهر المجن، وأمر بتقييد حريته (كما فعل مع القاضي بكار)[1] .

هذه الشخصية المستبدة المتعالية المتعجرفة كان يكفيها في بعض المواقف أن يستسلم لها عدوها[2] ، وأن يقر لها بخطئه، ويمرغ الوجه ويعفره في التراب، عاضًا أصابع الندم على ما بدر منه من عداوة سافرة؛ حتى يصفح عنه ابن طولون، ويعفو عنه، ويُقيل عثرته[3] . المهم أنه لا يطيق أن يقف أمامه أحد، أو يخاشنه. أما من استسلم له ولاينه، وأظهر الذلة والمسكنة والخضوع له، قبله ورضي عنه.

ب- طرقه الملتوية للحفاظ على منصبه:

الأصل في صاحب المنصب أن يكون جده واجتهاده وإخلاصه العامل الأساسي لاحتفاظه بمنصبه. وفي زمن ابن طولون، وفي عهد الخليفة المعتمد الضعيف اللاهي، كانت هناك مراكز قوى عديدة، تتدخل لدى الخليفة لحمله على تولية هذا، أو عزل ذلك؛ ومن هنا كان لابد لابن طولون أن يكون على صلة حسنة قوية بهذه القوى الفاعلة المؤثرة في قرار الخليفة. ولما كانت التقارير ترفع من داخل مصر (ابن المدبر، وشقير الخادم)، ومن خارجها (ماجور التركي)[4] ، تحذر الخلافة من نية ابن طولون للاستقلال بمصر؛ فإن ابن طولون- وهو أشد الناس حرصًا على منصبه- كان يتخذ من الأساليب الشرعية وغير الشرعية ما من سبيله صد القادة عن قبول ولاية مصر بدلاً منه[5]، بالإضافة إلى تقديم الرشاوى الطائلة إلى بلاط

(١) انقلب على بكار بن قتيبة الفقيه القاضي الحنفي؛ لرفضه مجاراته في لعن الموفق، وخلعه من ولاية العهد (سير أعلام النبلاء ١٢ / ٦٠٢-٦٠٣).

(٢) ، (٣) كما هو الحال الذي كان يتمنى ابن طولون حدوثه من جانب (سيما الطويل) خلال محاربته ابن طولون بالشام. (سيرة البلوي ص٩٤-٩٥)، ومع ابنه العباس (المصدر السابق ص ٢٧٠-٢٧١).

(٤) سيرة ابن الداية ص٨٣، وسيرة البلوي ص ٥٦ .

(٥) المصدر السابق ص٦٠-٦٢ .

الخليفة[1] ، إلى جانب ما يرسل سرًا للمعتمد؛ لأجل تثبيته في حكم مصر. وأعتقد أن ابن طولون لو حَسَّن علاقته بالموفق، ونجح في إقناعه بولائه الصادق للخلافة، وقدم له معونات قيمة في حربه مع الزَّنْج، لأيده الموفق، ولضمن له منصبه، ولم يحتج لسلوك السبل غير المشروعة.

ج- مجالس لهوه ومنادمته: وهذا جانب من جوانب الضعف البشري، الذي ينتاب بعض الحكام ومنهم: (أحمد بن طولون). وقد وردت أكثر من رواية تاريخية[2] ، تفيد حضور ابن طولون بعض مجالس الغناء، والشراب (شراب النبيذ) مع ما يقع في هذه الجلسات من تبسط واستخفاف وسكر وعربدة، واندفاع إلى الرقص والتصفيق؛ نتيجة شدة الطرب، وتمايل وانتشاء مع إيقاع الألحان.

وفي تقديري أن هذه سلبية من سلبيات ابن طولون تؤخذ عليه، وتتناقض مع الجدية والوقار والالتزام والانضباط، الذي يجب أن يتسم به الحاكم، فضلاً عن أن يكون حربًا على كل مظاهر المجون والخلاعة في دولته .

د- فشله في ميدان جهاد الروم: لاشك أن أحمد بن طولون لم تكن أطماعه تقف عند حد السيطرة الكاملة على شئون الحكم في مصر، وإنما كان يتطلع إلى مد نفوذه إلى بلاد الشام أيضًا؛ بحجة جهاد الروم المعتدين على سواحل الشام، وحماية الثغور الإسلامية هناك من غاراتهم[3] . وقد تهيأ لأحمد بن طولون الخروج بجيوشه إلى الشام أكثر من مرة[4] ، لكننا لم نقف على ما يفيد جهاده

(١) نعني بذلك ما دفعه من رشاوي إلى (يارجوخ)، و(الحسن بن مَخْلَد)؛ ليتوسطا له عند الخليفة ببقائه واليًا على مصر (سيرة البلوي ص٥٧).

(٢) سيرة ابن الداية ص١١٢، ١٢٣، وسيرة البلوي ٢١٧-٢١٨ .

(٣) خاصة أن له خبرة في شئون المرابطة بالشام (في طرسوس تحديدًا) في بدايات حياته العسكرية.

(٤) خرج ابن طولون إلى الشام بعد موت ماجور سنة ٢٦٤هـ وبالتحديد خرج في شهر شوال، واستخلف ابنه العباس ومعه الواسطي على مصر، وأخضع بلادالشام واحدة بعد الأخرى ، وقتل سيما الطويل المتغلب=

البيزنطيين. وكل ما ورد أنه وافق على عقد هدنة مع ملك الروم، وأصدر توجيهاته إلى عامله على الثغور باستغلال فترة الهدنة في ترميم الحصون، وتحصين الثغور؛ تحسبًا لأي هجوم مفاجئ؛ فالروم لم تعقد الهدنة إلا مضطرين (كوجود خلافات داخلية عندهم مثلاً)، فينبغي الاستفادة من تلك الهدنة المؤقتة بما فيه مصلحة المسلمين[1] ، ووردت أخبار - كذلك - تفيد اتفاقه مع الروم على تبادل الأسرى[2] . ومعلوم أن ابن طولون فشل سنة ٢٦٩هـ في آخر رحلاته إلى الشام، في القضاء على نفوذ يازمان الخادم، بل فشل في دخول ثغر طرسوس، ولم يحسن تقدير الموقف، فهبط عليه وعلى جنده صقيع الشتاء القارس؛ مما أتى على كثير من جنده ودوابه، واضطر للرحيل إلى مصر عليلاً علة الموت[3] . وهكذا فشل الرجل فشلاً ذريعًا في تثبيت أقدامه في بلاد الشام، فضلاً عن الوحدة معها ضد الروم.

هـ- عدم تخطيط ابن طولون لمستقبل دولته: من خلال متابعة سيرة هذا الأمير، ألفيناه معتدًا بنفسه، مستبدًا في تصرفاته وسياسته، لا يجرؤ أحد من أعوانه- ولا الواسطي وزيره-[4] على الظهور بجانبه، ولا يُبقي هو على ذي كفاءة

= على أنطاكية، وانتهى إلى طرسوس، وفكر في غزو الروم، لكن خبر خروج ابنه العباس اضطره إلى العود سريعًا إلى مصر. (سيرة البلوي ٩١-١٠١). والمرة الثانية التي خرج فيها إلى الشام كانت سنة ٢٦٩هـ للقاء المعتمد، وتبعها فشله في استقدامه إلى مصر، وأحداث لعن الموفق بالشام، ثم الصدام مع يازمان الخادم المتغلب على طرسوس، وفشل أحمد في مواجهته، ومرضه، ثم عودته إلى مصر (السابق ٢٨٩-٣١٢).

(١) سيرة ابن الداية ص ٩٨، وسيرة البلوي ص ١٠٩ .

(٢) وهذا يعني وجود حملات بحرية إسلامية من عمال الثغور التابعين لأحمد بن طولون ضد الروم، ومن ذلك: ما وقع سنة ٢٦٤هـ من هجوم أمير الثغور عبدالله بن رشيد بن كاوس على الروم وانتصاره، لكنه وقع في كمين فأسر، وفي سنة ٢٦٥هـ رده ملك الروم مع بعض الأسرى، وأرسل هدية لابن طولون (تاريخ الطبري جـ٩ ص٥٣٣-٥٣٤).

(٣) سيرة البلوي، ص ٣١٠-٣١٦ .

(٤) كان الواسطي - على قربه من ابن طولون - شديد الخوف، والحذر منه (السابق: ص ٢٨٥).

يلعب دورًا إلى جانبه. ومن هنا كان المعتمد الأساسي عليه في كل صغيرة وكبيرة في البلاد، وكان من المنتظر - على الأقل- أن يحسن إعداد ولده الأكبر العباس؛ ليتولى المسئولية من بعده، ويبدو أن ابن طولون بذل بعض الجهد في هذا السبيل[1] ، لكنه لم يكن كافيًا من جهة، وكان يشوبه التأنيب والتهديد والقسوة من جهة أخرى، فكان من أمر العباس ما كان؛ مما خَفَّض أسهمه عند والده، وصرف نظره عن توليته الأمر من بعده، واتجه إلى أخيه الأصغر الذي لم تكن النية منعقدة - أساسًا- على توليته. صحيح أن ابن طولون اختصه بالنصح والتوجيه أواخر عهده بالدنيا[2] ، لكن ذلك ما كان ليكسبه الخبرة اللازمة لحكم بلد مهم كمصر، واسترداد السيطرة على بلاد الشام. ولذلك حملت سياسة ابن طولون في طياتها عوامل انهيارها، فكان سفه خمارويه، وضعف حكام بني طولون من بعده، فانهارت الدولة سريعًا سنة ٢٩٢هـ.

خلاصة الرأي عندي:

١- أن الأمير أحمد بن طولون له حسناته كما أن عليه سيئاته، ولست ممن يهاجمونه على طول الخط، فينسبون إليه كل نقيصة، ويسلبونه كل ميزة، وكذلك لست مع أولئك الذين يرونه دون مستوى القيادة، بل أرى أنه يتمتع بصفات الحاكم الكفء، لكنه انحرف بكفاءاته ومواهبه، فأساء استخدامها؛ مما كان له أسوأ الأثر في دولته من بعده، وفي شعبه.

٢- أن أحوال مصر الاقتصادية والأمنية في عهد ابن طولون أفضل بكثير من عصور التبعية للخلافة العباسية؛ ولذلك فإني لا أُعَوِّل كثيرًا على آراء الذين ينعون عليه معاملته الموفق معاملة الند للند، وتصرفه في مصر تصرف المستقل، الذي لا

(١) مثل: التوجيه العملي الذي حاول فيه تأديب ابنه العباس، وتخليصه من عاداته السيئة (التسرع والطيش، وطلب الأموال من الناس؛ لقضاء حوائجهم). (سيرة ابن الداية ص١٠٨-١٠٩، وسيرة البلوي ص٢١٢-٢١٤).

(٢) المصدر السابق: ص ٣٣٩-٣٤٠ .

يتبع خلافة تستطيع عزله؛ لأن الخلافة التي يدافعون عن متوليها (المعتمد) كانت في أضعف حالاتها. ومـاذا ينتظر من خليفة لاه لا يفيق من متـعه وملذاته؟ وماذا ينتظر من أخيه المشغول معظم وقته بحرب الزنج (٢٥٥-٢٧٠هـ)؟

٣- في نظري سيئات ابن طولون ترجح حسناته؛ ويكفي ما ألحقه بالناس من هلع وخوف وجبن، وما حاق بالآلاف من سجن وتشريد، وقتل. إن الناس لم يحبوه، وإنما خافوه. ولا يصح أن نخدع بمظاهر كاذبة[1]، أو نسيء تفسيرها[2].

٤- هناك تناقض واضح بين عدد من صفات ابن طولون وسلوكياته (يجلس للمظالم ويرتكب المظالم في آن، ويبدو في صورة مارد جبار، ومرة أخرى يلبس إهاب الإنسان الوادع اللطيف)، شأنه في ذلك شأن كثير من الحكام المستبدين. ويمكن تفسير هذا التضارب الموجود الذي لا ينكر، ويحتاج إلى تفسير، من وجهين اثنين كلاهما يكمل الآخر:

الأول: أن تقواه التي اشتهر بها ظاهراً، لا يعبر عنها سلوكه ولا تاريخ حياته؛ مما يحملنا على القول بعدم صدقه فيها، وإنما احتمى بها ظاهراً؛ ليجلب تعاطف شعبه الساذج معه، ولحماية عرشه.

الثاني: أنه من أولئك الحكام الذين يتصفون بالعاطفة الدينية، ويهتمون بشئون العبادة، مادامت خارج شئون الحكم والسلطان. أما في سبيل الحفاظ على مناصبهم، فإنهم لا يتورعون عن الجرائم وارتكابها، فابن طولون يجمع بين الإجرام والتقى، وبين الشر الخالص والخير الخالص، دون تعارض، ودون أن يحس هو بما يرتكب من جرائم[3].

(١) كخروج الرعية على مختلف طبقاتها ونِحَلِهَا (مسلمين، ونصارى، ويهود) يضرعون إلى الله، ويحملون كتبهم المقدسة، ويضجون إلى الله بالدعاء لابن طولون بالشفاء، وذلك في مرض وفاته. (سيرة البلوي ص٣٣٠-٣٣١)، وكذلك مواكب جنازته الحارة المتألمة (السابق ص ٣٤٤-٣٤٥).

(٢) أما عن الدعاء له، فهو بأمر مباشر منه إلى قادته، فنقلوا الأمر بدورهم إلى الرعية، فهل لها إلا أن تسمع وتطيع، وكذلك فإن عامة الشعب المصري ساذج، وسرعان ما ينسى الإساءة. وأما مواكب الجنازة، فهي جنازة تشبه الجنائز الرسمية، ولعلهم خرجوا؛ أداءً لواجب العزاء، وما في القلب يعلمه الله.

(٣) د. حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٥١.

الفصل السادس

مصر بين العصرين الطولوني والإخشيدي

(٢٩٢-٣٢٣هـ/ ٩٠٥-٩٣٥م)

قبل عرض أحداث هذه الحقبة التاريخية، نبين - في الجدول الآتي- ولاة بني العباس خلالها:

اسم الخليفة	اسم الوالي	الفترة التي حكمها بالتاريخ الهجري
١- المكتفي	عيسى النُوشَرِي	٢٩٢-٢٩٧هـ
٢- المقتدر بالله	ابو منصور (تكين)	٢٩٧-٣٠٢هـ
	ذَكا الأعور	٣٠٣-٣٠٧هـ
	تكين (ولاية ثانية)	٣٠٧-٣٠٩هـ
	هلال بن بدر	٣٠٩-٣١١هـ
	تكين (ولايته الثالثة)	٣١١-٣٢١هـ
	احمد بن كَيْغَلَغ	٣٢٢-٣٢٣هـ

بعد سقوط الدولة الطولونية على يد القائد العباسي (محمد بن سليمان) في مستهل ربيع الأول سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م[1]، عادت مصر ثانية إلى عهد التبعية للخلافة العباسية، وورد كتاب الخليفة العباسي المكتفي (٢٨٩-٢٩٥هـ/ ٩٠٢-٩٠٨م) بولاية الحسين بن أحمد على الخراج، وجعل إليه النظر في أمر بني طولون وضياعهم، ثم ورد منه كتاب آخر بولاية عيسى النُوشَرِيّ على مصر[2].

(١) الكندي: كتاب الولاة ص ٢٤٧.

(٢) للنوشري ترجمة ضافية في: (النجوم الزاهرة)، لابن تغري بردي (ط. دار الكتب العلمية- بيروت) جـ٣ ص١٦٢-١٧٣، وعن ولايته راجع أيضًا: (الولاة) للكندي ص٢٦٧.

ولاية النُّوشري:

تسلم الوالي الجديد عمله في مصر لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ٢٩٢هـ[(١)] . وفي عهده وقعت أحداث ثورة ابن الخليج، ذلك القائد المصري الذي تخلف عن جيش محمد بن سليمان عند مغادرته مصر، واستمال إليه بعض الجند وغيرهم حتى كثرت جموعه، يبغي الاستقلال بالبلاد عن سيطرة الخلافة. ولم يستطع الوالي النوشري مقاومة ابن الخليج؛ الذي ألحق الهزيمة ببعض القواد؛ مما جعل الخلافة تُهْرَع إلى إرسال جيش بقيادة فاتك مولى المعتضد؛ ومعه القائد بدر الحَمَامي"[(٢)] ، وازداد قلق الخلافة، حتى إن الخليفة نفسه أعد مضاربه، يبغي الخروج على رأس جيش آخر؛ للقضاء على هذا الثائر، إلا أن الأخبار توافدت بهزيمة ابن الخليج وأسره لست خلون من رجب سنة ٢٩٣هـ[(٣)] ، ثم أمر به وحمل إلى بغداد ومعه وجوه أصحابه؛ فطيف بهم هنالك؛ ثم قتل شر قتلة. ومرت سنوات حكم هذا الوالي، يسودها الاضطراب وعدم الاستقرار، إلى أن وافته المنية لأربع بقين من شعبان سنة ٢٩٧هـ.

ولاية تكين:

ولي أبو منصور تكين[(٤)] حكم مصر لإحدى عشرة خلت من شوال سنة ٢٩٧هـ من قبل الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ/ ٩٠٨-٩٣٢م)، وصدرت إليه الأوامر بالجد في أمر المغرب والاحتراس من العبيديين هناك؛ مما دفعه إلى إرسال جيش كثيف بقيادة (أحمد بن صالح) الذي نجح في فرض سيطرته على برقة، وجبي منها الأموال، وسار حتى سُرْت[(٥)] ، لكنه واجه جيشًا

(١) الولاة: ص ٢٥٨ . (٢) نسبة إلى الحمام الذي يقتنى . (الأنساب ٢/ ٢٥٥).

(٣) الكندي: الولاة ص ٢٦٧ .

(٤) ترجم له ابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة ، ط. بيروت) جـ٣ ص١٩١-١٩٤ .

(٥) مدينة على ساحل البحر الرومي (الأبيض) بين برقة وطرابلس. لأهلها نخل، وبساتين، وآبار عذبة، وهم من أسوأ الناس معاملة، لا يبيعون ولا يتاعون إلا بسعر قد اتفق جميعهم عليه، وهم بذلك يختلفون عن أهل طرابلس، ذوي الأخلاق الحسنة، والمعاملة الجيدة. (معجم البلدان، لياقوت، ط. دار الكتب العلمية) جـ٣ ص٢٣٢-٢٣٣ .

عُبَيديًّا بقيادة (حَباسة بن يوسف الكُتامي")[(١)] . ولم يستطع أي من القائدين فرض إرادته على الآخر، فلجأ حباسة إلى إضعاف عزيمة غريمه بإخباره عن عزم الوالي تكين على عزله عن برقة؛ مما جعله يعود القهقرى إلى مصر، ويترك المجال رحبًا لخصمه، يستولي عليه أنَّى شاء![(٢)] .

اضطر تكين لإرسال جيش آخر إلى برقة بقيادة خير المنصوري، وعبدالعزيز ابن كليب، لكنهما تنازعا، فَفَشلا، وذهبت ريحهما، فهزمهما جيش حباسة فارتدا إلى مصر، تاركَيْن برقة لعَدوهما[(٣)] .

بعد سقوط برقة في أيدي العبيديين كتب والي مصر تكين كتابًا إلى صاحب إفريقية، وجعله على لسان أمير المؤمنين الخليفة المقتدر بالله العباسي، يدعوه فيه إلى الطاعة والتمسك بها، وكان ذلك سنة ٣٠٠هـ. وقد حرص تكين- قبل إنفاذ هذه الرسالة- على جمع وجوه أهل مصر، وقراءتها عليهم[(٤)] .

ولي على هذا النص الفريد، الذي يكاد ينفرد بالسبق إليه المؤرخ المصري الكندي تعليق يسير، وهو أنه أراد بهذا الكتاب، الذي كان على يقين من تجاهل العبيديين له، أن يعريهم أمام المنخدعين بهم في مصر، ويكشف بغيهم وخروجهم على الخلافة العباسية، فيقف الناس على حقيقة هؤلاء، فإذا غزوا مصر، كان الشعب وممثلوه على بينة من أمرهم، فيتم التلاحم مع الجيش لمطاردة الغزاة.

كانت هزيمة جيش تكين في برقة، ثم وقع كتابه المشار إليه سلفًا إلى العبيديين من أكبر الدواعي، التي حفزت جيوشهم للمضي قدمًا تجاه مصر للاستيلاء عليها.

(١) ورد في (الأنساب)، للسمعاني في مادة: (الحَباسي) جـ٢ ص١٦٣: أن هذه النسبة إلى (حباسة) بفتح الحاء، وهو قائد الجيش الذي وافى من الغرب يطلب مصر أيام المقتدر بالله.

(٢) الكندي: الولاة ص ٢٦٨ .

(٣) نفسه .

(٤) السابق: ص٢٦٨ - ٢٦٩ .

ففي يوم السبت لثمان خلون من شهر المحرم سنة ٣٠٢هـ، قدمت جيوش حباسة ابن يوسف من برقة إلى الإسكندرية، واستنجد تكين بجيوش الخلافة، فأغاثته بجيش عليه القاسم بن سيما، ثم تبعه دخول الحسين بن أحمد المادَرائي، ومحمد ابن علي بن أحمد المادَرائي؛ لتدبير شئون مصر الإدارية والمالية أثناء تلك الظروف العصيبة. كما وفد إلى مصر عدد من القادة الكبار، مثل: أحمد بن كَيْغَلَغ، وغيره. وخرج عامة أهل مصر وخاصتهم على قلب رجل واحد، يصدون اعتداءات العبيديين، وأبلوا في قتالهم بلاء حسنًا، حلَّتْ على إثره الهزيمة الفادحة بجيوش العبيديين، حتى اضطر حباسة إلى الانسحاب لإفريقية، حيث قتله صاحبها؛ نتيجة فشله الذريع في تلك الموقعة(١).

قدم مؤنس بجيوشه من قبل الخلافة إلى مصر، فقام بعزل الوالي تكين عن مصر، وأقام بالفسطاط، يصرف شئون البلاد، مطلق اليد في تصريف أمورها، حتى قدم كتاب المقتدر بتولية ذَكا الأعور، فدخلها يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من صفر سنة ٣٠٣هـ وخرج مؤنس عن مصر في ربيع الآخر من العام نفسه يقود جيوشه راجعًا إلى دار الخلافة(٢) بعد استقرار الأحوال في مصر.

ولاية الأعور:

بدأ الوالي ذكا عهده باتخاذ عدد من التدابير الوقائية؛ تحسبًا لمجيء جيوش المهدي إلى مصر ثانية، وقد قام -في هذا الصدد- بالقبض على عدد ممن يكاتبون المهدي، ويوافونه بأخبار مصر، ويطلعونه على أسرارها ونقاط الضعف بها، وسجن كثيرًا منهم، ونكل بهم بقطع أيديهم وأرجلهم؛ حتى يرتدع الآخرون. وبعد ذلك اهتم اهتمامًا خاصًا بالإسكندرية، باعتبارها المكان الذي يلج منه الأعداء سريعًا إلى داخل مصر، ولابد أنه أقام التحصينات الدفاعية

(١) تاريخ الطبري ١٠/ ١٤٩-١٥٠، وصلته ص ٥١-٥٢، والولاة للكندي ص ٢٦٨-٢٧٣.
(٢) الكندي: الولاة ص ٢٧٣.

اللازمة، كما عمرها بالجند والمقاتلة، ورتب لها القواد، يتفقدون شئونها بين الحين والآخر، بقيادة مظفر، الذي ولاه المدينة نفسها(١).

وفي شهر صفر سنة ٣٠٧هـ، قدمت جيوش القائم ولِيّ عهد المهدي إلى الإسكندرية، ويبدو أنه دخل بقواته على حين غفلة من جندها وأهلها؛ مؤملاً الدخول سريعًا إلى الفسطاط. وشاع الرعب والفزع بين الناس، ففروا إلى الشام برًا وبحرًا، وتعرض أكثر الفارين للهلاك. وأراد الوالي ذكا الخروج بجنده إلى الجيزة؛ استعدادًا للقاء الأعداء، لكن الجند أبوا الانصياع لأوامره، وسألوه العطاء. ويبدو أنه نجح في إرضاء الجند بعد جهد جهيد، وصرف لهم الحسين بن أحمد المادرائي العطاء. وقام ذكا ببناء حصن على الجسر الغربي بالجيزة، وحفر خندقًا يحيط بالجيزة وبعسكره داخلها؛ حرصًا على الدفاع عنها، لكن المرض داهم الوالي، فتخطفته يد الردى بغتة، وهو مقيم بين جنده في شهر ربيع الآخر سنة ٣٠٧هـ(٢).

ولاية تكين الثانية:

نظرًا لخبرة وكفاءة تكين الحربية في مواجهة جيوش المغاربة، أعادته الخلافة إلى ولاية مصر ثانية، فكان عند حسن الظن به، فأتم استعداداته البرية بحفر خندق ثان حول الجيزة. ويبدو أن قيادة الجيش العبيدي فطنت إلى صعوبة الغزو البري، ففاجأت جيش تكين بأسطول بحري، يحاول غزو مصر من طريق البحر بقيادة سليمان الخادم، فأمدت الخلافة مصر بأسطول من طرسوس عليه (ثَمْل الخادم)، استطاع الإجهاز على أسطول المغاربة، وساعدتهم رياح هُوج عاتية هَبَّتْ تجاه الأعداء، أغرقت مراكبهم، فسقط جندهم بين أسير وقتيل. ولما كان للعبيديين قوات برية بالفيوم وغيرها. فقد تكفلت بها جيوش الخلافة التي أقبلت مسرعة إلى مصر بقيادة مؤنس الخادم، الذي طهر البلاد منهم، ففروا أمامه لا يلوون على شيء إلى برقة، بينما عاد مؤنس وتكين بقواتهما إلى الجيزة

(١) الكندي: الولاة ص٢٧٤، والمقريزي: الخطط ١/ ٣٢٨.
(٢) الكندي: الولاة ص٢٧٥-٢٧٦.

في ربيع الأول سنة ٣٠٩هـ[1] . ولم يرحل مؤنس عن مصر - كعادته- إلا بعد أن أبعد نفوذ تكين عن مصر بعزله عنْ ولايتها، وصرفه إلى الشام[2] .

سوء أحوال مصر بعد عزل تِكين:

ولي مصر هلال بن بدر في ربيع الآخر سنة ٣٠٩هـ فلم يستطع السيطرة على الجند الرجالة (المشاة) والبحريين، الذين كان يحرضهم محمد بن طاهر صاحب الشرطة؛ للمطالبة بأرزاقهم، وقام بالقبض على صاحب الشرطة وأخيه، وأمر بقتلهما، لكن الأحوال ازدادت سوءاً عَبَّر عنه الكندي بقوله: «وكانت مصر في أيام هلال من النهب والقتل والفساد على نهاية»[3] .

حاول الخليفة المقتدر إصلاح الخلل الواقع في ولاية مصر، فعزل ابن بدر، وجعل مكانه (أحمد بن كيغلغ)، وذلك أواخر شهر رجب سنة ٣١١هـ. وقد بدأ عهده باتخاذ إجراءات عقابية مشددة ضد الجند المشاغبين، ولكن شدته جوبهت بثورة عنيفة، ألقت به خارج الفسطاط، فلم يجرؤ على دخولها؛ مما أدى إلى عزله[4] ، وتولية تكين مكانه شئون مصر للمرة الثالثة، ففرض هيبته على الجند، وأسقط الرجالة الثائرين منهم، ونفاهم خارج الفسطاط؛ مما أدى إلى هدوء الأحوال، واستقرار وأمن الناس، فأتوا إليه- وقد اكتسب حبهم واحترامهم- يقدمون له أسمى آيات الشكر والعرفان بعد أن خلصهم من فساد الجند ونهبهم وفجورهم. وظلت مصر تنعم في ظل الأمير تكين، حتى لبى نداء ربه في السادس عشر من ربيع الأول سنة ٣٢١هـ[5] مخلفًا وراءه أثرًا طيبًا؛ نتيجة حسن السياسة، والدربة بالأمور، ومعرفة الحروب[6] .

(١) صلة تاريخ الطبري: ص ٧٣، ٧٥، ٧٨ ، والولاة ص ٢٧٥-٢٧٧ . (٢) المصدر السابق :ص٢٧٨ .

(٣) السابق: ص٢٧٩ . وترجم له كل من: المقريزي في (الخطط): ١ / ٣٢٨، وابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة ، ط. بيروت): ٣ / ٢٢٦-٢٢٧ .

(٤) الكندي: الولاة ص٢٨٠، وابن تغري بردي: النجوم (ط. بيروت) ٣/ ٢٣٢ .

(٥) الكندي: الولاة ص ٢٨٠-٢٨١ . وقد علل ابن تغري بردي إعادة تكين لولاية مصر للمرة الثالثة سنة ٣١١هـ بأن ذلك كان حرصًا من الخلافة على دفع المخاطر المحتملة على مصر، وتكين- بالطبع- أجدر من يلي هذا الأمر بحكم نجاحاته السابقة (النجوم الزاهرة، ط. بيروت) ٣/ ٢٣٢-٢٣٣ .

(٦) المصدر السابق (ط. بيروت) جـ٣ ص٢٣٧ .

مصر بعد وفاة تكين:

تدهورت شئون مصرَ بعد وفاة تكين، فحفلت بصراع مرير بين محمد بن تكين وصاحب الخراج محمد بن علي المادَرائي، وصراعات طوائف الجند المشارقة والمغاربة[1] ، وتخبطت الخلافة في تولية وعزل الولاة في مصر لدرجة أنها ولت أحد ولاتها- وهو مقيم بدمشق- على مصر، فلم يستطع دخولها؛ لكثرة الاضطرابات بها، وظل على ذلك مدة اثنين وثلاثين يومًا، ثم عزل عنها، وهو لم يدخلها بعد[2] .

ويمكن تلخيص أهم سمات تلك الفترة فيما يلي:

١- **شيوع الاضطرابات وعدم الاستقرار الداخلي**؛ نتيجة صراع الجند والرعية[3] من جهة، وصراعات وانقسامات طوائف الجند من جهة أخرى. والشعب المصري يعاني الأمرين من ذلك الفساد، إضافة إلى معاناته من ولاة عاجزين، وعمال خراج مستبدين، وجيوش هائلة متوالية، تزاحمهم في ديارهم، تضيق عليهم في مآكلهم ومشاربهم، يقدم بها مؤنس الخادم، وقواد العباسيين في أثناء حملات المغاربة وفي أعقابها. وأثر كثرة تغيير الولاة خاصة الصالحين الأكْفاء منهم (مثل: تكين) تأثيرًا سيئًا للغاية في حياة الناس، فأبدلهم بالأمن خوفًا، وأيقنوا معه أن الخلافة لا يحكمها في التولية والعزل إلا مصالحها الخاصة، دون اعتبار لمصلحة الشعب، ودون إدراك نمو روح الاستقلالية فيه بعد أن ذاقها زمن الطولونيين، وتطلع إليها في ثورة ابن الخليج[4] ؛ فلم يعد شعب مصر بعد الطولونيين كما

(١) تفاصيل هذه المواجهات أوردها الكندي في (الولاة) ص ٢٨٢-٢٨٤ .

(٢) المصدر السابق ص٢٨٢ . وهذا الوالي هو مؤسس الدولة الإخشيدية بعد، إنه (محمد بن طغج الإخشيد).

(٣) كان ذلك في عهد الوالي (ذكا الأعور) سنة ٣٠٥هـ حين ذُكر الصحابة والقرآن بما لايليق . (السابق: ص٧٤، والنجوم ٣ / ٢٠٨).

(٤) رغم أنها لم تكن على المستوى المأمول، وصاحبها أفسد ديار مصر، وتركها يبابًا من كثرة الفتن والمصادرات والظلم، الذي لحق أعيان البلد، وإن كان إذا أخذ من أحد شيئًا، أعطاه إيصالاً، ووعده برد ما أخذ منه أيام الخراج، لكنه - في النهاية- كما قال صاحب النجوم في شعر استشهد به:

رام نفعًا وضَرّ من غير قصدٍ ومن البِرّ ما يكون عقوقا

كان قبلهم[1] ، لكنهم – جهالة منهم – ساسوه السياسة نفسها، فدفعوه دفعًا للالتفات حول أول داع إلى رعاية مصالحه، والاستقلال عن الخلافة.

٢- التعرض لخطر العبيديين الخارجي:

تطلع العبيديون إلى احتلال مصر، يدفعهم إلى ذلك أهداف يريدون تحقيقها: مذهبية، وسياسية، واقتصادية، وأمنية. وهناك مجموعة من العوامل شجعتهم للتعجيل بمحاولة تحقيق تلك الأهداف، منها : أهمية موقع مصر الإستراتيجي ، وما تتمتع به من ثراء وخيرات، لا تقارن بها طبيعة بلاد المغرب المجدبة القاحلة، وكذلك الضعف الداخلي الذي تعانيه مصر في تلك الآونة، ووجود نشاط شيعي مستتر بها، ومكاتبات ومراسلات تشجع هؤلاء على القدوم إلى مصر، بل تحثهم على ذلك[2] . وأخيرًا، حالة الضعف والتفكك الذي تعانيه الخلافة العباسية[3] ، والضربات المتتالية، التي تتعرض لها على أيدي القرامطة[4] . لذلك كله، انتهز العبيديون الفرصة، وحاربوا كلاً من مصر والخلافة العباسية عن طريق الهجمات الحربية المباشرة، والمؤامرات غير المباشرة[5] ، ولئن لم تحقق نتائجها المرجوة لأسباب عديدة[6] ، فقد كانت خطوة مهمة على الطريق، كان من الممكن أن تصل إلى نهايتها المأمولة، لولا قيام الدولة الإخشيدية في مصر، الذي أجّل تحقيق أحلامهم في السيطرة على مصر إلى حين.

لمحات من الأوضاع الاجتماعية بين العصرين الطولوني والإخشيدي:

عانت مصر في فترة ما قبل العصر الإخشيدي من الاضطرابات السياسية

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس، للدكتور حسين مؤنس ص ٥٧ (مطابع دار المستقبل بالفجالة ١٩٨٠م).
(٢) الكندي: الولاة ص٢٦٨، ٢٧٢، ٢٧٤، والخطط ٢/ ٣٣٤، ٣٤٠ .
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥ / ٩٨، ١٠١-١٠٤ .
(٤) النجوم (ط. بيروت) ٣/ ٢٩٩، وعطية القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر ص ٥٨-٥٩ .
(٥) مثل: مقتل المقتدر على أيدي بعض دعاة البربر المغاربة، وأثره الخطير في دار الخلافة، وفي جند مصر (صلة تاريخ الطبري ص ١٥٦-١٥٧).
(٦) منها: مهارة وصلابة الوالي تكين،وجهود المصريين ومشاكل وقلاقل المغرب الداخلية، واهتمام الخلافة الفائق وإرسالها الجيوش إلى مصر (د. علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى ص٢١٦).

المفضية إلى المتاعب الاقتصادية. وقد انعكس ذلك على المجتمع المصري، الذي لابد أن عامته تكبدت ويلات الفقر، والقلق النفسي وسط أجواء تموّر بصراعات الجند الداخلية، واعتداءاتهم على أموال الناس وممتلكاتهم، إلى جانب مقاساتهم تحول بلادهم إلى هدف لهجمات العبيديين ومرتع يعيث فيه جند الخلافة، الذين تتوافر إمداداتهم لمواجهة الخطر العبيدي، بما له من تأثير بالغ في حياة الناس ومعيشتهم.

وطبيعي في مثل هذه الأجواء الفاسدة أن تظهر عوامل الانحلال الخلقي واللهو والمجون، الذي تصدى لشيء منه الوالي تكين[1] في محاولة منه- فيما يبدو- لإعداد شعب مصر لمواجهة خطر العبيديين. وقد أثمرت جهود هذا الوالي المخلص، فنجح في جمع المصريين على قلب رجل واحد بصورة لا مثيل لها من قبل، وألحق بالعبيديين هزيمة كبيرة سنة ٣٠٢هـ؛ بفضل توحيد كلمة الناس ومشاعرهم وتضحياتهم، وحسن بصيرتهم عند الخطر، رغم ضعف خبرتهم القتالية، واستشهاد عشرة آلاف منهم[2] . وظل الروح الجهادي ناميًا ومتصاعدًا في صفوف شعب مصر، وظهر دورهم الإيجابي عندما وجدوا القيادة الواعية الأمينة ممثلة في الوالي تكين، فشاركوا في صد الغزوة العبيدية الثانية، وشاركوا الجند في قتل الأسرى المغاربة من الجيش العبيدي، وذلك في شوال سنة ٣٠٧هـ[3] . وعندما قام مؤنس بعزل الوالي تكين، غضب شعب مصر وثار، وأرسل نوابه

(١) يذكر الكندي أنه أمر بجمع المؤنّثين (المتشبهين من الرجال بالإناث)، وأمرهم بإظهار المعازف والمزامير والطبول، وشهّر بهم في لباسهم، وطيف بهم الفسطاط، وذلك يوم الثلاثاء السابع من ذي القعدة سنة ٣٠٠هـ. (الولاة ص٢٦٩).
(٢) المصدر السابق: ص ٢٧٠ .
(٣) السابق: ص٢٧٦ . ويلاحظ أن الوالي أمر بتمييز الأُسارى، فأطلق أهل القيروان، وطرابلس، وبرقة، وصقلية، وأذن للناس بقتل الأسرى من كُتامة وزويلة (البربر المغاربة). ولاشك أنها حكمة من ذلك الوالي، الذي أدرك أن أشد عناصر الجيش العبيدي هم الكتاميون، وهم عموده الفقري الذي قامت دولتهم على أساسه. أما الآخرون، فقد يكونون مجبرين على القتال في صفوف العبيديين.

يطالبون مؤنسًا بردِّ واليهم الكفء إلى منصبه، فاضطر إلى الموافقة صاغرًا، ريثما يدبر أموره لإخماد أية ثورة شعبية، ثم قام بعزله بعد أيام قلائل[1]. ويبدو أن الناس لم تستطع المقاومة، فظلوا يترقبون الأحوال، حتى أعيد تكين إلى منصبه ثانية، فخلَّص الناسَ من الجند المشاغبين، فأحس شعب مصر، الذي لا يعرف النكران، بالأثر الطيب لهذا العمل، فتوجه الناس يشكرون الوالي، ويحمدون له حسن صنيعه[2]. وهكذا استخلصنا سمة مهمة لهذا الشعب في تلك الفترة، وهي أنه يتوحد في ساعات الخطر[3]، ويتوق إلى القيادة الماهرة الحكيمة، التي تحسن توجيهه، وعند ذلك يعطيها إخلاصه وتفانيه بلا حدود، ويطالب ببقائها، ويحرص على إظهار الامتنان لها، ويتأسف لفواتها[4].

نظرة على الوضع الثقافي العام بين العصرين الطولوني والإخشيدي:

تعد هذه الفترة فقيرة في إنجازاتها العلمية ونهضتها الفكرية؛ لأن الطابع الغالب عليها طابع الحروب والانقسامات والفتن والثورات، حتى إن من وجد بها من العلماء كانوا- أساسًا- نتاج الفترة السابقة، وقضوا شطرًا من حياتهم في هذه المرحلة القاسية التي مرت بها مصر.

ومن مجالات الثقافة في تلك الفترة:

١- **الحديث والفقه:** يعد الإمام الطحاوي (٢٣٨-٣٢١هـ) إمام المذهب الحنفي في مصر من أبرز المحدثين والفقهاء الذين عايشوا تلك الفترة، ولاشك أن كثيرًا

(١) وذلك سنة ٣٠٩هـ (النجوم الزاهرة ٣/ ٢٢٥).

(٢) الولاة ص ٢٨٠ (سنة ٣١١هـ).

(٣) ومن هنا فلا صحة لما يذكره الذهبي من فزع العوام من جيوش العبيديين، وإظهارهم القلق الشديد وكثرة البكاء، والتأهب للهروب، لما ملكت جيوش القائم الجزيرة من الفسطاط، وذلك سنة ٣٠٨هـ. (تاريخ الإسلام ٢٣/ ٣١).

(٤) كان ذلك - أيضًا- موقف الناس لما استعفى القاضي العادل الحازم ابن حَرْبُوَيْه من منصب القضاء، فأعفي سنة ٣١١هـ. (السابق ٢٣/ ٣٥٠).

من كتبه وضعها في فترة شبابه ومقتبل عمره مما عايشه وقضاه في أوائل العصر الطولوني إبان الاستقرار والازدهار. ومن مؤلفاته القيمة في الفقه والحديث: (مشكل الآثار)، و(شرح معاني الآثار).

٢- **النحو واللغة:** يعد أبو العباس بن محمد بن ولاد من أبرز علماء النحو واللغة في مصر في تلك الفترة، حيث رحل إلى العراق، وأخذ النحو عن الزَّجَّاج، وألَّف في مصر كتاب (المقصور والممدود). توفى ٣٣٢هـ. وهناك محمد بن إسحاق بن أسباط الكندي المصري النحوي صاحب كتاب (العيون والنكت) المتوفي سنة ٣٠٣هـ.

٣- **الأدب:** يعد الشعر هو الفن الوحيد الذي لقي ازدهارًا ورواجًا في تلك الفترة؛ ليواكب أحداثها، ويصور صراعاتها المتعددة[1].

٤- **التاريخ:** لا نسمع بإنجاز تاريخي في هذه الفترة، وإن كانت شهدت بدايات حياة الكندي، وابن يونس، وابن زولاق، الذين سيتضح دورهم في الفترة التالية، وكذلك شهدت جزءًا كبيرًا نسبيًّا من حياة مؤرخَي العصر الطولوني: ابن الداية (ت٣٤٠هـ)[2]، والبلوي (توفى منتصف ق٤هـ)[3].

وهكذا برهنت هذه الفترة المضطربة على أن عصور الدول المستقلة المستقرة في مصر خير من عصور التبعية المضطربة.

❁❁❁

(١) احتفظ لنا الكندي بقطع شعرية مطولة في كتابه: (الولاة)، تصور لنا الحروب الدائرة بين ابن الخليج، وجيوش الخلافة العباسية (ص٢٥٩-٢٦٦)، وقطع أخرى تصور الصراع مع جيوش إفريقية الغازية (ص٢٧٠-٢٧٣).

(٢) راجع: (التاريخ والمؤرخون في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري)، للدكتور عبدالفتاح فتحي، جـ١ ص١٣٨-١٥٧).

(٣) المرجع السابق: ١٥٨-١٦٨.

الفصل السابع

الدولة الإخشيدية (٣٢٣-٣٥٨هـ / ٩٣٥-٩٦٩م)

قبل دراسة الأوضاع السياسية في العصر الإخشيدي، إليكم هذا الجدول الموضح لأمراء الدولة الإخشيدية:

اسم الأمير	كنيته	الفترة التي حكمها بالتاريخ الهجري والميلادي
١- محمد بن طغج الإخشيد	(ابو بكر)	٣٢٣-٣٣٤هـ/ ٩٣٥-٩٤٦م
٢- أونوجور بن محمد بن طغج	(ابو القاسم)	٣٣٤-٣٤٩هـ/ ٩٤٦-٩٦٠م
٣- علي بن الإخشيد	(ابو الحسن)	٣٤٩-٣٥٥هـ/ ٩٦٠-٩٦٦م
٤- كافور	(ابو المسك)	٣٥٥-٣٥٧هـ / ٩٦٦-٩٦٧م
٥- أحمد بن علي بن الإخشيد	(ابو الفوارس)	٣٥٧-٣٥٨هـ/ ٩٦٧-٩٦٩م

هذه مرحلة جديدة من مراحل الحياة السياسية في مصر، بها وضع والي مصر الجديد نهاية لعصر الفوضى والضعف والاضطرابات، وحظيت مصر في عهده بكثير من الأمن والاستقرار.

ولاية محمد بن طُغْج[١] على مصر:

منذ ولاية ابن طغج الصورية الأولى على مصر[٢]، وهو يرقب الأحداث،

(١) تفسيره: عبدالرحمن. (المغرب)، لابن سعيد (الجزء الأول من القسم الخاص بمصر) ص ١٤٩، ونهاية الأرب للنويري ٢٨ / ٤٤ . ولد الإخشيد ببغداد للنصف من رجب سنة ٢٦٨هـ وتنقلت به الأحوال إلى أن توجه مع والده إلى طرسوس من قبل أمير المؤمنين المعتضد بالله، فغزا في سنة ٢٨٥هـ، وقدم مع أبيه إلى مصر في الأيام الطولونية، وخرج معه إلى دمشق لما وليها، ثم عاد معه إلى مصر، حيث قدم محمد بن سليمان الكاتب بجيوش الخلافة العباسية؛ للقضاء على دولة بني طولون سنة ٢٩٢هـ. وقد تم إخراج محمد بن طغج مع أبيه إلى العراق في جملة من أُخرج من الطولونية، فأقام ببغداد حتى وفاة أبيه سنة ٣١٠هـ. ومن يومها ظل يعد نفسه للانقضاض على ولاية مصر كما سنرى . (راجع المقفى للمقريزي جـ٥ ص٧٤٥-٧٤٦).

(٢) ورد كتاب ولايته من قبل (القاهر بالله) يوم الأحد ٧ رمضان ٣٢١هـ (الولاة ص٢٨٢).

ويعد العدة للاستيلاء على ولاية مصر[١]، في وقت أصبحت فيه الغلبة للأقوى، ولم يعد للخلافة سيطرة على ولاياتها وغدا تقليد الخلافة لولاتها لا يحظى بشيء من الاحترام، وصارت القوة هي اللغة الوحيدة التي يفهمها الوالي القديم، وذوو المصلحة في الإبقاء عليه؛ حتى يسلموا مقاليد السلطة للوالي الجديد[٢].

انتهز محمد بن طغج حالة الفوضى السابقة، وتحرك في كلا الإطارين السياسي والعسكري؛ للوصول إلى مآربه. فعلى المستوى السياسي نجح في استغلال نفوذ صهره الوزير الفضل بن جعفر في الحصول على تقليد منه بولايته على مصر[٣]. وعلى المستوى العسكري، حاول التفاهم مع (محمد بن علي المادرائي) المسيطر على شئون مصر الإدارية والمالية؛ ليتركه يدخل إلى مصر دون صدام. فلما فشلت المحاولة[٤]، لم يجد مفراً من دخول مصر بقواته براً وبحراً، وقد أُجبر الوالي ابن كيغلغ[٥] على دخول معركة، لم يكن يريد خوضها، أرغمه عليها المادَرائي، الذي لا يريد لوال قوي كابن طغج أن يكون له سلطان بجانبه. ونجحت قوات ابن طغج في دخول مصر براً وبحراً، وألحق

(١) أقصد: أنه يأخذ في الاستعداد الحاسم لدخول مصر وامتلاكها بالقوة المسلحة، التي أخذ في تكوينها وتنميتها، وتوطيد نفوذه عن طريقها ببلاد الشام منذ ولايته على الرملة، ثم دمشق المشار إليها سلفًا. (العلاقات بين الشام ومصر في العهدين: الطولوني، والإخشيدي) ، للدكتور زيود ص ٢٧٧-٢٧٩ .

(٢) وذلك واضح من الصراع السياسي والحربي على ولاية مصر بين محمد بن تكين، وأحمد بن كيغلغ في ولايته الثانية، وأنصارهما، وتخبط الخلافة في التولية والعزل لأكثر من والٍ، وفي الصلاحيات الواسعة المعطاة للمادَرائي (الولاة ص٢٨٢-٢٨٥، والعلاقات بين الشام ومصر في العهدين الطولوني والإخشيدي ص٢٧٩ .

(٣) المغرب، لابن سعيد (الجزء الأول من القسم الخاص بمصر): ص١٥٧ .

(٤) نفسه، ود. سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين: ص ٧١ .

(٥) ذكر القلقشندي في (صبح الأعشى) جـ٣ ص٤٢٥: أن القاهر بالله ولى (محمد بن طغج) على مصر سنة ٣٢١هـ، ثم ولى (أحمد بن كيغلغ) ثانية ٣٢٣هـ ، وأقره عليها المكتفي، ثم المستكفي بالله بعده. وهذا كلام ينافي الحقائق التاريخية الثابتة؛ إذ لم يذكر ولاية محمد بن طغج الثانية، التي امتدت من ٣٢٣-٣٣٤هـ، والتي عاصر فيها الخليفة الراضي (٣٢٢-٣٢٩هـ)، والمتقي لله (٣٢٩-٣٣٣هـ)، ثم المستكفي (٣٣٣-٣٣٤هـ) .

الهزيمة بقوات ابن كيغلغ، الذي لم يجد بُدًّا من التسليم بعد أن عاين قوة ابن طغج واستبسال جنده، بينما رأى جنده هو يطلبون الأمان، ولا يثبتون عند النزال[1].

وعلى صعيد آخر، رفض الجند المغاربة بقيادة (حَبَشيّ بن أحمد) التسليم لابن طغج، وأنفوا المقام مع رجل حاربوه، وقاوموه، وسيتقلص نفوذهم المادي والمعنوي إلى جوار شخصيته المهيبة الحازمة. سار هؤلاء الجند ومعهم قادتهم نحو الفيوم، فأرسل إليهم ابن طغج قائده (صاعدًا) في مراكبه، فاشتبك معهم في معركة، أسفرت عن هزيمة صاعد وأسره وقتله مع أصحابه، وذلك في شهر شوال ٣٢٣هـ. وشجعهم ذلك على مهاجمة الفسطاط، فتصدى لهم ابن طغج ففروا إلى الإسكندرية، ومنها إلى برقة ، وكاتبوا صاحب إفريقية أن يرسل إليهم جيشًا، يستولون به على مصر، فهم أقدر الناس معرفة بطرقها، وسبل السيطرة عليها. لكن القدر لم يمهل القائد حبشيًا، فاعتلّ، ثم وافته منيته؛ متحسرًا على ما خلّفه بمصر[2] ، وذلك في صفر سنة ٣٢٤هـ. بعد ذلك قاد (بجكم) الجند المغاربة بعد مجيء مدد العبيديين، متوجهًا نحو مصر، فسارع ابن طغج بإخراج جيوشه إلى الصعيد والإسكندرية بقيادة أخيه الحسن، والقائد صالح بن نافع، فأحرزوا النصر على المغاربة، وطيف بالأسرى منهم، وذلك في شهر جمادى الآخرة في سنة ٣٢٤هـ[3] .

تمكن محمد بن طغج من فرض إرادته وولايته على مصر، عن طريق قوته الحربية التي استطاع بها أن يحقق الانتصارات العسكرية سالفة الذكر في الداخل والخارج على سواء. وقد توطد ملكه بمصر وتثبت برضا الخلافة

(١) الولاة ص ٢٨٥-٢٨٦، والمغرب (قسم مصر) ص١٥٨-١٥٩؛ ونهاية الأرب ٢٨ / ٤٥، والخطط ١/ ٣٢٩، والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٧٨، ود. سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين ٧٢-٧٣ .

(٢) المغرب (قسم مصر) ص ١٦١ .

(٣) الولاة: ٢٨٦-٢٨٨، والمغرب (قسم مصر) ص١٥٩-١٦١ .

العباسية عنه[1] ، واطمئنانها إلى قوته، واستقرار مصر في عهده، وقدرته على حمايتها من مطامع العبيديين بالمغرب[2] . فلا غَرْوَ أن يسارع الخليفة الراضي إلى توليته مصر (صلاتها، وحربها، وخراجها)[3] ؛ فتم له بذلك السيطرة الإدارية، والمالية على تلك الولاية المهمة من ولايات الخلافة. ولاعجب- أيضًا- في أن تجمع له الخلافة بين ولايتي مصر، والشام معًا[4] ، فيحقق بذلك الوحدة المصرية الشامية التقليدية، التي ستمنحه فرصة نادرة بعد ذلك للاستقلال بدولته في ظل شرعية الخلافة، واحترامها، وكسب ودها. وأخيرًا، فلم يبخل الخليفة الراضي على ابن طغج، بمنحه اللقب[5] الذي تمنى، بما يتلاءم مع نفوذه الكبير، ومكانته السامية.

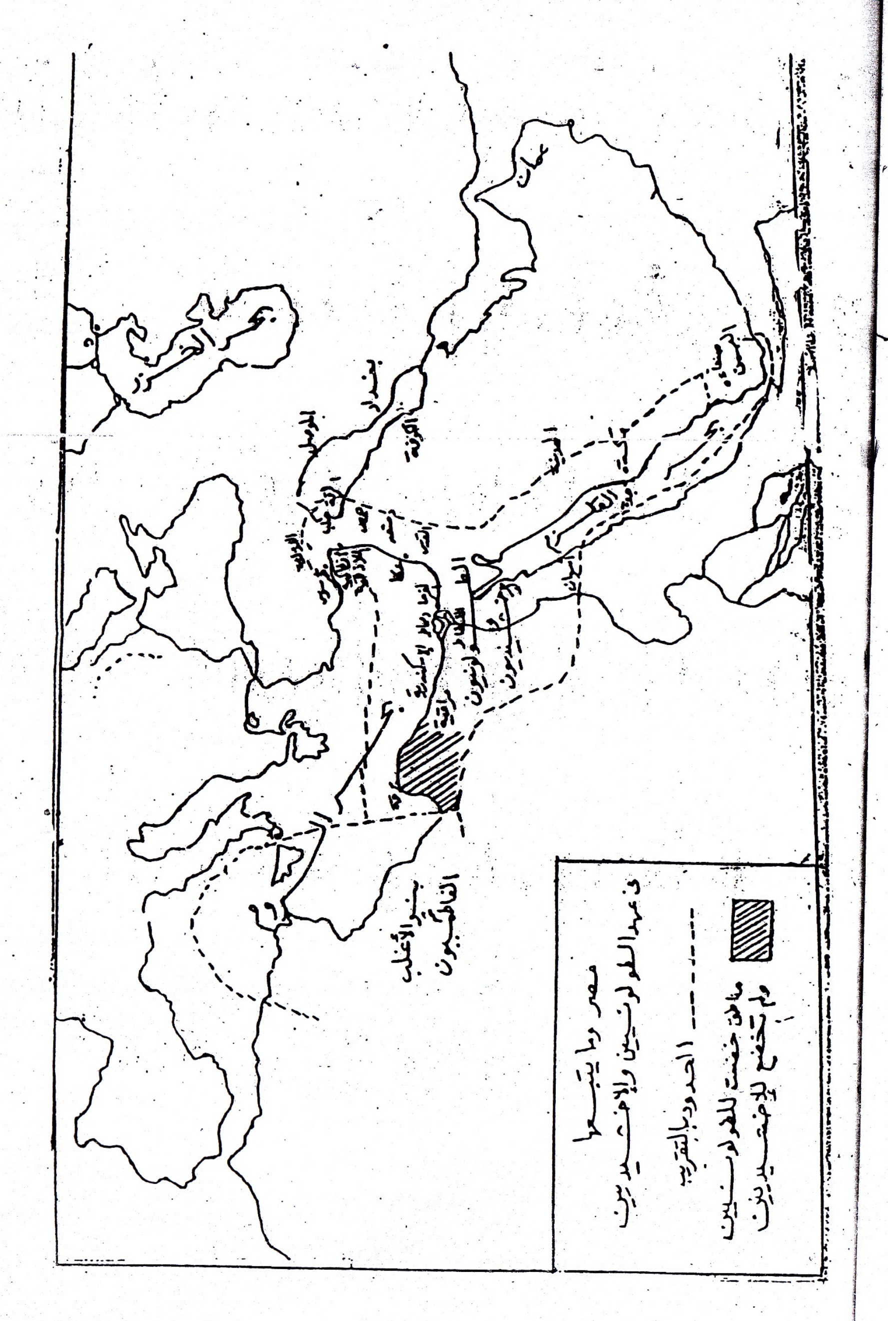
(١) كان الإخشيد حسن الطاعة للخليفة الراضي، ويرسل إليه الهدايا الرائعة التي تخلب اللب. وفي المقابل يقول الصُولي: ما رأيت الراضي يقرظ أحدًا تقريظه الأمير أبا بكر محمد بن طغج، وكان يستحسن هداياه، ويُفَرّق علينا منها، وكان يصفه بأنه رجل كبير العقل، حسن الطاعة، وهو لا يدري بم يكافئه! (أخبار الراضي بالله، والمتقي لله) من كتاب (الأوراق) للصولي ص٤٤ . وفي المقابل أرسل الراضي إلى الإخشيد - بعد توليته مصر والشام- برسول خاص من لدنه، يحمل الخِلَع إليه، والطَّوق، والسِّوارَيْن؛ تعبيرًا عن عظيم مكانته عنده. وقد استقبل ابن طغج، والوزير الفضل بن جعفر هذا الرسول في مصر سنة ٣٢٤هـ وذلك في احتفال كبير، وركب ابن طغج إلى الجامع العتيق ومعه الوزير، فصلى فيه، وعليه خِلَع الراضي، (المغرب، قسم مصر) لابن سعيد ص١٦٥-١٦٦ .

(٢) وقد أورد ابن سعيد في (المصدر السابق): أن الراضي كتب إلى الإخشيد كتابًا- أرسله بعد كتاب الإخشيد إليه في شعبان ٣٢٤هـ بشأن ضياع المادَرائي في مصر والشام- يأمره فيه بالجد في أمر المغاربة، وقتال عساكرهم، وإنفاذ العساكر إليهم. ولاشك أن هذا ورد بعد صد ابن طغج المغاربة، وفرار فلولهم المنهزمة إلى برقة. ولعل الراضي لم يقنع بذلك، فأراد مبادأتهم بالهجوم، إلا أن ابن طغج رأى بعقله الكبير انشغال المغاربة عنه بقلاقلهم، وانتهاجهم سياسة مسالمة معه، بما لا يدع مجالاً لفتح جبهة جديدة عليه وعلى الخلافة لا داعي لها.

(٣) الولاة ٢٨٦ .

(٤) تجارب الأمم، لمسْكَوَيْه جـ١ ص٣٣٢، وتكملة تاريخ الطبري، للهمذاني ص ٢٩٨، والكامل لابن الأثير ٧/ ١٢٦، وتاريخ الإسلام للذهبي ٢٤/ ٣٤ .

(٥) وهو لقب الإخشيد (بالدال، أو بالذال)، ويعني: ملك الموت بالتركية (سير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٦٦، والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٦٩). وورد كتاب الراضي به، ودُعي به على المنبر في رمضان ٣٢٧هـ (الولاة ٢٨٨، ووفيات الأعيان ٥/ ٥٨، والمغرب - قسم مصر- ص١٧٤). أما ما ذكرته د. سيدة كاشف في كتاب (مصر في عصر الإخشيديين) ص٥٥ (هامش١)، من أن ابن سعيد يرى أن تاريخ منح الراضي ابن طغج لقب الإخشيد كان سنة ٣٢٦هـ فغير دقيق؛ لأن الرجل جعله تاريخ كتاب ابن طغج إلى الراضي =



علاقات الإخشيد بقوى عصره:

لم يكن من الممكن أن يبلغ الإخشيد ما بلغ من نفوذ وتوسعات، وامتلاك لزمام الأمور في مصر والشام دون أن يصطدم برجالات عصره، ذوي النفوذ الكبير، والتأثير العظيم في مجريات الأمور بدار الخلافة، تلك القوى التي كانت ترقب بزوغ نجم الإخشيد بكثير من الترقب والقلق، وتلقي في روع الخلافة مخاطر انفراد الإخشيد بحكم مصر والشام، وما يمكن أن يفضي إليه ذلك من تكرار تجربة استقلال الطولونيين عن الخلافة.

(١) علاقته بأمير الأمراء ابن رائق:

كانت الخلافة العباسية في عهد الخليفة الراضي بالله تعاني أشد المعاناة من الضعف والانحلال، وكان الخليفة المذكور- وقد تعاورت عليه علله وشهواته- ليس له من الأمر شيء، وكان يستعين على تصريف أمور الدولة (أو بغداد بالأحرى) بإحدى الشخصيات القيادية الفذة، التي منحها منصب (أمير الأمراء)، تلك هي شخصية (محمد بن رائق)[١]، الذي سيطر على مقاليد السلطة في العراق، وتطلع إلى بلاد الشام؛ لتقليص نفوذ الإخشيد بها[٢]، ثم النفاذ منها إلى مصر بعد ذلك .

تقدم ابن رائق بقواته سريعًا نحو الشام، وسيطر على دمشق سنة ٣٢٧هـ؛ مما دفع الإخشيد لتجهيز جيش، يقوده بنفسه لمواجهة ابن رائق، وذلك في

=يطلب إليه فيه تلقيبه بهذا اللقب (المغرب ١٧٣)، ثم رد عليه بمنحه إياه سنة ٣٢٧هـ. وكذلك لا يصح تاريخ ٣٢٨هـ الذي ذكره النويري لمنح اللقب (نهاية الأرب ٢٨ / ٤٦).

(١) حول مكانة ابن رائق وسيطرته على مقاليد الأمور، يمكن مراجعة: كتاب (أخبار الراضي بالله) للصولي ص٤٢-٤٤، ١٤٦، ٢٠٩، والكامل لابن الأثير ٧/ ١٢٣ .

(٢) خاصة أنه ارتفعت مكانته لدى الراضي، وغدا منافسًا لابن رائق. ولعل ما أسرّ به الراضي لبعض جلسائه من تمنّيه إحلال الإخشيد محل ابن رائق وصل إلى مسامع الأخير بعد تغير الراضي عليه (أخبار الراضي بالله) ص٤٥، ١٠٢-١٠٣، ١٤٣ .

المحرم سنة ٣٢٨هـ، لكن سفراء الصلح بيَن الطرفين حقنوا الدماء، وتم الاتفاق على تسليم ابن رائق مدينة الرملة[١] للإخشيد[٢] .

نجح ابن رائق في هجوم مباغت سريع في السيطرة على كثير من مدن الشام، وتوجه نحو مصر. جرت معركة شديدة مع الإخشيد وقواته بالعريش، انتهت بانتصار الإخشيد، الذي عادت قواته مظفرة بالأسرى ورءوس القتلى إلى الفسطاط في شوال سنة ٣٢٨هـ. وفي النهاية عقد صلح بين الطرفين امتلك بموجبه ابن رائق مدن الشام إلى الرملة، واتفق أن يرسل له الإخشيد ١٤٠ ألف دينار سنويًا[٣] .

لقد أسفر اتفاق الإخشيد وابن رائق عن مكاسب واضحة للأخير[٤] ، لكن القدر عاجل ابن رائق، ففقد حياته على يد الحمدانيين سنة ٣٣٠هـ[٥] ، فانتهز الإخشيد الفرصة، وأرسل جيوشه إلى الشام مع علي بن محمد بن كلا[٦] ، ثم خرج بنفسه وبسط نفوذه على بلاد الشام وتسلمها ثانية، وعاد إلى مصر في جمادى الأولى سنة ٣٣١هـ[٧] . وبعد عودته أحس أنه أصبح من القوة وبسط النفوذ في كل من: مصر والشام، بحيث يمكنه أخذ البيعة- دون رجوع إلى الخلافة المتهاوية- لابنه أونوجور على جميع القواد، وذلك في آخر ذي القعدة ٣٣١هـ[٨] .

---

(١) مدينة عظيمة بفلسطين، كانت رباطًا للمسلمين، اختطها الخليفة الأموي سليمان بن عبدالملك، وكانت موضع اهتمام الخلفاء في مختلف العصور، وتخرج فيها عدد من العلماء والأئمة. (معجم البلدان ٣/ ٧٩-٨٠).

(٢) الولاة ٢٨٨-٢٨٩، والمغرب (قسم مصر) ص١٧٨-١٨٠ .

(٣) تكملة تاريخ الطبري ٣٢٢، وتاريخ الإسلام للذهبي ٢٤/ ٥٧، والمقفى ٥ / ٦٥٨ .

(٤) وقد دافع عن موقف الإخشيد من هذا الاتفاق، وعدّه عملاً له ما يبرره من الظروف المحيطة به كل من: د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣/ ١٤٥، ود. زيود: العلاقات بين الشام ومصر ص٢٩٨ .

(٥) حول ظروف مقتله راجع: (أخبار الراضي بالله) ص٢٢٦، وتجارب الأمم ٢/ ٢٧-٢٨ (وذكر أنه قُتل بالموصل عن يد غلمان أبي محمد الحسن بن عبدالله بن حمدان المعروف بـ (ناصر الدولة)، وتكملة تاريخ الطبري ص ٣٣٢-٣٣٣ .

(٦) الولاة: ٢٩١ .

(٧) المصدر السابق: ص٢٩١-٢٩٢ ، ونهاية الأرب ٢٣/ ١٦٧، والبداية والنهاية ١١/ ٢١٥ .

(٨) المغرب (قسم مصر) ص١٩١ (كان الدعاء في مصر للخليفة المتقي، ثم للإخشيد، ثم لابنه أونوجور، ثم لعمه أبي المظفر الحسن بن طغج)، والخطط ١/ ٣٢٩، والنجوم ٣/ ٢٩١، وتاريخ الإسلام السياسي، للدكتور حسن إبراهيم حسن ٣/ ١٤٥، و(مصر في عصر الإخشيديين) للدكتورة سيدة كاشف ص٨٩ .

(٢) علاقته بالخليفة العباسي المتقي لله (٣٢٩-٣٣٣هـ):

لا أقصد بهذه الجزئية أن الخليفة المتقي كان من القوة والنفوذ المادي، بحيث يعد من رجالات تلك الفترة المؤثرين في أحداثها؛ إذ الوقائع التالية تثبت خلاف ذلك تمامًا، لكني أعرض للقاء الإخشيد به؛ لألقي الضوء بطريق غير مباشر على الشخصيات المؤثرة، مثل: أمير الأمراء توزون التركي، وأمراء الحمدانيين، ثم ما نتج عن هذا اللقاء من نتائج، تتعلق بالإخشيد وأسرته، وممتلكاته بالشام.

تعد فترة حكم الخليفة المتقي لله امتدادًا لفترة الضعف، الذي عانته الخلافة أيام سلفه الراضي، بل ازداد نفوذ الأتراك اتساعًا، ودخل في حلبة الصراع أطراف آخرون كالحمدانيين، وكلهم يحاول بسط نفوذه والتحكم في مجريات الأمور، والخليفة بينهم حائر لا حول له ولا قوة، يلتمس النصراء المدافعين عنه، وبلغ به الأمر أن أرسل يستنجد بالحمدانيين من هول بطش ونفوذ أمير الأمراء توزون التركي. وبالفعل أرسل ناصر الدولة جيشًا بقيادة ابن عمه (الحسين بن سعيد)، وتمكنوا من إخراج الخليفة في حرمه وأهله ووزيره وبعض أعيان بغداد. وحدثت مواجهات بين توزون والحمدانيين هُزم فيها الحمدانيون، وتقهقروا إلى الموصل، ثم إلى قريب من بلاد الشام[١] . وأقام الخليفة في حماية الحمدانيين، حتى أحس منهم الضجر والسأم[٢] ، ففكّر في مراجعة توزون ببغداد. ويبدو أن الخليفة المتقي لم يكن يثق بجواب توزون ولا بتمام حماية الحمدانيين له، فأرسل إلى الإخشيد يشكو له حاله، ويستدعيه لحمايته.

اقتنص الإخشيد تلك الفرصة الذهبية النادرة، وقدم بقواته حاملاً الأموال والهدايا، وتم اللقاء بالرَّقَّة في منتصف المحرم سنة ٣٣٣هـ[٣] . وقد بالغ

---

(١) كان ذلك خلال عامي ٣٣١- ٣٣٢هـ (نهاية الأرب ٢٣/ ١٧٠-١٧٣ ، وتاريخ ابن خلدون ٤ / ٢٩٨).

(٢) أقام عندهم المتقي من شهر ربيع الآخر سنة ٣٣٢هـ إلى نهاية هذه السنة (راجع: تجارب الأمم ٢/ ٦٧، وتاريخ ابن خلدون ٣/ ٥١٩).

(٣) نهاية الأرب ٣٣/ ١٧٦ . والرقة: مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حَرَّان ثلاثة أيام، وهي داخلة في بلاد الجزيرة؛ لأنها من جانب الفرات الشرقي (فهي واقعة بين العراق والشام). (معجم البلدان ٣/ ٦٧).

الخليفة في إكرام الإخشيد، وبالغ الإخشيد في احترام الخليفة وتقديره، وحمل الإخشيد إلى الخليفة الكثير من الأموال والهدايا والتحف الثمينة النادرة، وأحسن إلى جميع من معه، وعلى رأسهم: وزيره أبو الحسين علي بن محمد ابن مقلة. وقد عرض الخليفة على الإخشيد أن يصطحبه إلى بغداد، ويوليه إمرة الأمراء، وبعد موافقة سريعة، بادر الإخشيد إلى التخلص من هذا الأمر بذكاء[1] ، وفي الوقت نفسه عرض هوأن يصطحب الخليفة إلى مصر، أو أن يبقى ببلاد الشام ولا يعود إلى توزون؛ فالأتراك لا أمان لهم، وهو على استعداد لإمداده بالأموال والرجال، لكن الخليفة اعتذر[2] ، وكذلك اعتذر وزيره[3] .

تحرك الخليفة في طريقه إلى بغداد، فتحققت مخاوف الإخشيد، وقبض توزون على الخليفة ووزيره[4] ووكَّل بهما، وسُمِلَت عينا المتقي، فدخل بغداد فاقد البصر، مخلوعًا من منصبه في المحرم ٣٣٣هـ[5] ، بينما مر الإخشيد على بلاد الشام، فاطمأن على أوضاعها، ودبر شئونها[6] ، ثم عاد إلى مصر في جمادى الأولى سنة ٣٣٣هـ[7] ، تتناوشه مشاعر متباينة، فهو - من جهة- يشعر

(١) لما تدارك الموقف المتأزم، وأدرك الخطورة التي يمكن تعرضه لها في بغداد، وضياع ملكه في مصر والشام، فاعتذر بأن العبيديين سيغزون مصر، فأمره الخليفة بالعود سريعًا (المغرب- قسم مصر- ص١٩٢).

(٢) فهو لا يريد أن يدع عاصمة ملكه، كما أن وسطاء الصلح بينه وبين توزون أكدوا له أنهم أخذوا عليه أغلظ الأيمان وأوثقها، وأشهدوا عليه القضاة والعلماء، أن يسمع ويطيع الخليفة في أمره ونهيه، فوثق به الخليفة وصدقه (تجارب الأمم ٢/ ٦٧، والكامل ٧/ ١٨٦، وفوات الوفيات ١/ ١٧). ولا يصح ما ذكره د. علي إبراهيم حسن في (تاريخ جوهر الصقلي) ص٢٨، من أن الإخشيد كان يفاوض توزون؛ ليتعهد بحماية الخليفة.

(٣) ذلك مراعاة للخليفة المتقي (تاريخ الإسلام ٢٥/ ١٢).

(٤) ندم الوزير على عدم استجابته لنصح الإخشيد له، فقد قُبض عليه، ونُهِبَ ما منحه الإخشيد من أموال (تجارب الأمم ٢ / ٦٨). وكانت وزارته سنة، وخمسة أشهر، واثني عشر يومًا (الكامل ٧ / ١٨٧) .

(٥) تجارب الأمم ٢/ ٦٧ - ٦٨، وتكملة تاريخ الطبري ص ٣٤٧، والنجوم ٣/ ٢٩١-٢٩٢ . ومات توزون بعد جرمه في حق المتقى بأقل من عام، بينما مات الخليفة في سجنه في شعبان ٣٥٧هـ (سير أعلام النبلاء ١٥/ ١١١، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٥١).

(٦) النجوم ٣/ ٢٩٢ .

(٧) الولاة: ص ٢٩٢، والنجوم ٣/ ٢٩٢-٢٩٣ .

بالغبطة والسرور بما أنعم عليه المتقي من توطيد ملكه في مصر والشام، وتوليته وأسرته حكم تلك البلاد مدة ثلاثين عامًا، يخلفه عليها من بعده ابنه (أونوجور)[1] ، ومن جهة أخرى يملؤه الأسف على ما جرى للخليفة المتقي من إيذاء وخلع. وعلى كلٍّ، فقد أقره الخليفة الجديد (المستكفي ٣٣٣-٣٣٤هـ/ ٩٤٤-٩٤٦م) على مصر والشام، على ما جرت عليه عادة الخلفاء من قبل[2] .

(٣) علاقته بالحَمْدانيين:

نذكرها في النقاط الآتية:

أ- كان دور الحمدانيين المؤثر في الصراع الدائر بين القوى المختلفة في عصر الخليفة المتقي لله، وقوة الإخشيد المتصاعدة في مصر والشام سببًا في وجود صراع خفي بين القوتين.

ب- تحول العداء المستتر إلى صراع ظاهر سنة ٣٣٣هـ، تمكن سيف الدولة على أثره من السيطرة على حلب وسائر الشام، لكن الإخشيد سار بقواته، وهزم سيف الدولة، الذي ظل معسكرًا رغم ذلك[3] .

جـ- تيقن الإخشيد أن الانتصار على سيف الدولة ليس حاسمًا؛ مما دفعه إلى الدخول في مفاوضات صلح معه في ربيع الأول سنة ٣٣٤هـ[4] . وتم دعم الاتفاق بإقامة علاقة مصاهرة بينهما[5] ، ثم توفى الإخشيد بعدها بقليل في دمشق في شهر ذي الحجة سنة ٣٣٤هـ[6] .

(١) المغرب (قسم مصر): ص ١٩٢ .

(٢) الولاة: ص ٢٩٢، والنجوم ٣/ ٢٩٣ .

(٣) الكامل ٧/ ٢٠٣، والمغرب (قسم مصر) ١٩٣-١٩٤، ومصر في عصر الإخشيديين ص٣٥٠-٣٥١ .

(٤) حول وجهة نظر الإخشيد في هذا الصلح ونصوصه يراجع: المغرب (قسم مصر) ١٩٤-١٩٥، وبغية الطلب ٥/ ٢٤٠٩ .

(٥) تكملة الهمذاني ٣٥٢، وتاريخ الإسلام للذهبي ٢٥/ ٢٤ .

(٦) الولاة (ط. جست) ص ٢٩٣ .

وقبل أن نسدل الستار على فترة حكم الإخشيد، نركز سمات عصره في النقاط الآتية:

١- تميزت فترة حكم الإخشيد بشيوع الهدوء والاستقرار إلى حد بعيد[(١)]، وقد ساعد على تحقيق ذلك: شخصية الإخشيد القوية، وثباته في منصبه لفترة لا بأس بها[(٢)]، وقضاؤه على الفتن في مهدها[(٣)]، وحسن التنظيم الإداري لأجهزة دولته[(٤)]، وإشرافه على تحقيق العدالة في البلاد[(٥)]. وبمقارنة يسيرة بين مصر والشام في عهده، وبين دولة الخلافة العباسية وحاضرتها (بغداد)، نجد الأمن والاستقرار في دولة الإخشيد، بينما الخلافة تُنتقص من أطرافها[(٦)]، وتتلاحق الفتن بها، حتى نزح كثير من أهل بغداد وتجارها إلى مصر والشام مع الحجاج[(٧)]؛ فرارًا مما حلَّ ببلادهم، وطلبًا للسكينة والطمأنينة.

(١) لم تذكر المصادر سوى ثورة واحدة قام بها رجل علوي في مصر في عهد الإخشيد، ويدعى (ابن السراج)، قام بها في الصعيد، مستغلاً فرصة خروج الإخشيد؛ لبسط نفوذه على بلاد الشام بعد مقتل ابن رائق، إذ خرج بالجيوش في السادس من شوال سنة ٣٣٠هـ فلما خلت الفسطاط من الجند، خرج هذا الخارج في حركة نهب وسلب، ثم هرب إلى العبيديين بالمغرب (الولاة ٢٩١، والمقفى ٧/ ٤٥٣، ود. سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين ٣٣٨). ولعله كان على صلة بالعبيديين، وأوعزوا إليه بضرب الاستقرار في مصر.

(٢) من ٣٢٣-٣٣٤هـ. ودولته نموذج للدول المستقلة عن سلطان الخلافة العباسية مع الاحتفاظ لها بسلطتها الروحية، مستغلة ما حل بها من ضعف وهرم (مقدمة ابن خلدون ٢/ ٧٦٤).

(٣) قضاؤه على تنازع المالكية والشافعية وأتباعهم في مصر، وكراهيته اللجاج في مجلسه (المغرب- قسم مصر- ص ١٧٣،١٨٢).

(٤) يمكن مراجعة ما يتصل بالنظام الإداري في العصر الإخشيدي (خاصة الشرطة) في: د. علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى ٣١٤-٣١٥، ود. سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين ص ١٥٥ وما بعدها، وأحمد عبدالسلام ناصف: الشرطة في مصر الإسلامية ص ١٢٨.

(٥) عن طريق جلوسه للمظالم (المغرب - قسم مصر- ص١٩٠-١٩١، ومصر في عصر الإخشيديين ص ٢٢٨).

(٦) فمثلاً لم يبق للراضي سوى بغداد وأعمالها، والحكم فيها لابن رائق. وبقية أطراف الخلافة في أيدي المتغلبين عليها (فالبصرة في يد ابن رائق، وخوزستان في يد البريدي، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه.. والموصل، وديار بكر، ومضر، وربيعة في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد الإخشيد، والمغرب وإفريقية في يد القائم، والأندلس في يد الناصر... والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي (تجارب الأمم ١/ ٣٦٦، والكامل ٧/ ١٢٣، ونهاية الأرب ٢٣/ ١٣٥-١٣٦).

(٧) تكملة تاريخ الطبري (أحداث ٣٣١هـ): ص ٣٤٠، وتاريخ الإسلام ٢٥/ ٦.

٢- حظيت دولة الإخشيد بجيش قوي وأسطول متميز[(١)]، أحسن الإخشيد تكوينهما وإعدادهما، وردّ بهما أطماع الداخل (أمير الأمراء ابن رائق، وسيف الدولة بن حمدان)، وأطماع الخارج (العبيديين).

٣- نجح الإخشيد في إقامة علاقات سياسية متوازنة مع مختلف القوى ذات النفوذ الروحي والمادي- داخليًا وخارجيًا- في عصره، فحصل على ما يريد من مُلك له ولولده من بعده في عهود الخلفاء العباسيين المعاصرين له (الراضي، والمتقي، والمستكفي، والمطيع)[(٢)]، مانحًا إيّاهم كل ود واحترام وتقدير، كما استخدم نظام المصالحات والمصاهرات السياسية مع المنافسين له (ابن رائق، وسيف الدولة) في الوقت المناسب. وأخيرًا، نجح - بذكاء- في إقامة علاقات سلميّة مع قوتي: الروم[(٣)]، والعبيديين في عهد القائم[(٤)]؛ وبذلك ضمن بقاء حكمه، وامتداد نفوذه واتساع دولته.

مصر بعد الإخشيد:

بعد وصول نبأ وفاة الإخشيد إلى مصر في يوم الاثنين لليلتين خلتا من المحرم سنة ٣٣٥هـ[(٥)]، دخلت البلاد منعطفًا جديدًا بعد خلو مركز القيادة من مؤسس الدولة الإخشيدية. واجتمع أهل الرأي والحكم يتشاورون فيمن يلي الأمر بعده. ورغم وجود تقليد لأونوجور[(٦)] أكبر أولاد الإخشيد بولاية العهد بعد أبيه، إلا أنه

(١) راجع: وفيات الأعيان ٥/ ٥٩، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٦٦، وتاريخ الإسلام ٢٥/ ٣٠- ٣١، ١١٢، والخطط ١/ ٨٦، ومصر في عصر الإخشيديين ص ٢٤٥ وما بعدها.

(٢) الولاة ص٢٩٣ (دُعي للمطيع لله في مصر يوم الجمعة ٣ من شوال ٣٣٤هـ)، وأقر الإخشيد على عمله (المغرب- قسم مصر- ص ١٩٥).

(٣) يلاحظ رد الإخشيد على كتاب رومانوس البيزنطي إليه، وما احتواه من بيان سياسة الإخشيد، وما يدل عليه من مكانته العظيمة لدى الروم (المصدر السابق ص١٦٧-١٧٢، وصبح الأعشى ٧/ ١٠-١٨).

(٤) يراجع في العلاقة بينهما: المغرب (قسم مصر) ص١٧٥-١٧٧، وتاريخ الدولة الفاطمية، للدكتور حسن إبراهيم حسن ١١٩-١٢١.

(٥) الولاة ص ٢٩٣.

(٦) ويعني بالعربية اسم (محمود). (وفيات الأعيان ٤/ ٩٩، وتاريخ الإسلام ٢٦/ ١٥٠). وقد وقع كلا المصدرين في وهم واحد؛ إذ ذكرا أن الراضي هو الذي عقد لأونوجور على ولاية مصر.

يبدو أن صغر سنه(١) جعل هؤلاء المجتمعين يترددون في توليته بادئ الأمر، خاصة في ظل وجود أمثال: محمد بن علي المادَرائي، والوزير جعفر بن الفضل بن جعفر ابن الفرات، وصاحب الخراج محمد بن علي بن مقاتل، وأبي المظفر الحسن بن طغج أخي الإخشيد، ولابد أن يكون من هؤلاء من له تطلع إلى السلطة. ولم يطل التشاور بين هؤلاء الكبراء، حتى حسمه المادَرائي لصالح أبي القاسم أونوجور بن الإخشيد. ولعل في كتاب التعزية، الذي أرسله الخليفة المطيع لأونوجور، وقرئ في المسجد الجامع، إقراراً من الخلافة بما تم الاستقرار عليه(٢) .

وفي شهر ربيع الأول سنة ٣٣٥هـ ورد الخبر باستيلاء سيف الدولة بن حمدان على دمشق، وطَبَرِيَّة، وتوجهه نحو الديار المصرية، حتى وصل إلى الرملة، وأنه دُعي له على جميع منابر الشام، فأقلق هذا الأمر أونوجور والقادة في مصر، فتحركت الجيوش على رأسها كافور غلام الإخشيد، وتم اللقاء بين الجانبين في معركة هائلة، هُزم فيها سيف الدولة، وارتدَّ إلى الشام، وتبعته جيوش مصر، فتخلى عن دمشق وحلب، وانهزم إلى الرقة(٣) . واضطر سيف الدولة إزاء هذا الانكسار، الذي تعرضت له قواته إلى العود إلى اتفاق الصلح، الذي أُبرم من قبل مع الإخشيد، فكانت دمشق لأونوجور، وحلب وما وراءها شمالاً في يد سيف الدولة. وأقر أونوجور يأنس المؤنسي على دمشق، وعاد بقواته مع عمه الحسن، وقائده كافور إلى مصر سالمين(٤) .

(١) ولد أونوجور يوم الخميس التاسع من ذي الحجة سنة ٣١٩هـ بدمشق (وفيات الأعيان ٤/ ٩٩). وهذا يعني أنه ولي مصر وعمره حوالي ١٥ سنة.

(٢) حول ظروف تولية أونوجور مصر يراجع: مؤلف مجهول: الذيل على كتاب الولاة للكندي ص ٢٩٤، والمغرب - قسم مصر- ص١٩٧-١٩٨، والمقفى ٢/ ٣١٣-٣١٤ .

(٣) حول تفاصيل صراع كافور وسيف الدولة بالشام تراجع المصادر والمراجع الآتية: المغرب- قسم مصر- ص١٩٧-١٩٨، ومختصر تاريخ دمشق ٢١/ ١٢٩ ، ومصر في عصر الإخشيديين ص ٣٥٣-٣٥٤، والعلاقات بين الشام ومصر في العصرين الطولوني والإخشيدي، للدكتور زيود ٣١٥-٣١٧، وبحث (دور الحمدانيين في حماية الثغور الإسلامية)، للدكتور فهمي عبدالجليل في (مجلة ندوة التاريخ الإسلامي) العدد الثامن ١٩٩٠م، ص ٢٤٤-٢٤٥ .

(٤) النجوم ٣/ ٣٣٥ .

استغل أبو نصر غَلْبون بن سعيد المغربي (متولي أسيوط، وإخميم من صعيد مصر) خروج الجيوش لمجابهة سيف الدولة بالشام، فخلع الطاعة، فأرسل إليه كافور من الشام جنداً لمحاربته، لكنه نجح في إنزال الهزيمة بهم واتسع نفوذه، فوصل إلى الشرقية، ومنها وصل إلى الفسطاط، ونزل دار الإمارة بها، فخرجت إليه جماعة من الجند الإخشيدية، وطاردوه ولحقوا به وقتلوه، وخلصوا البلاد من شره المستطير، الذي أدى إلى تعطيل الحج في مصر ؛ لشدة الانشغال بثورة هذا الثائر، وذلك في شهر ذي الحجة سنة ٣٣٦هـ(١) .

يبدو أن المكانة التي شغلها كافور في عهد الإخشيد، ودوره في إلحاق الهزيمة بسيف الدولة بالشام باعتباره قائد الجيش، وجهوده في تهيئة الأوضاع بالشام، ثم خلو الساحة من بعض ذوي النفوذ والسيطرة في مصر آنذاك(٢) ، كل ذلك مَهَّد له الأمر لفرض نفسه على مجريات الأمور، فأصبح مدبر شئون أونوجور، والقائم على أمر ولايته، ووصل الأمر به أن شَغَلَ الأميرَ الحدث عن شئون البلاد(٣) ، وأصبح هو الآمر الناهي، والحاكم الحقيقي لها.

والظاهر أن الخلاف الذي دَبَّ بين أونوجور وكافور تصاعد شيئًا فشيئًا بدءاً من سنة ٣٤٣هـ بازدياد نفوذ كافور، حتى بلغ أوجه سنة ٣٤٧هـ بعد أن شبّ أونوجور، وأصغى لوجوه الأمراء والقواد، الذين حرضوه، بل تآمروا معه ضد كافور؛ ليسترد ملكه المغتصب، وليدفع عن نفسه الحَجْر الذي فرضه كافور عليه، ولعله سلم حياة اللهو والصيد والملذات التي يعيشها. لكن كافوراً تنبه لذلك الأمر، وتدخلت أم أونوجور، وأصلحت بينهما؛ خوفًا على ابنها من

(١) الذيل على كتاب الولاة للكندي ص٢٩٥-٢٩٦، ونهاية الأرب ٢٨ / ٥٠-٥١ .

(٢) مثل: صاحب الخراج محمد بن علي بن مقاتل، الذي قبض عليه في بداية عهد أونوجور، وسجن حتى مات ٣٥٠هـ (المغرب - قسم مصر- ص ١٩٨، والمقفى ٢/ ٣١٤، والنجوم ٣/ ٣٧٦)، والحسن بن طغج الذي توفى سنة ٣٤٢هـ بالرملة (النجوم ٣/ ٣٥٤)، ومحمد بن علي المادَرائي الذي توفى ٣٤٥هـ (المصدر السابق ٣/ ٣٦١) .

(٣) فكان يطلق له كل عام ٤٠٠ ألف دينار (الخطط ١/ ٣٢٩، والنجوم ٣/ ٣٣٤)، ويتركه مغرى بالصيد والأكل والشرب والتنزه (المقفى ٢/ ٣١٧).

بطش كافور، وإشفاقًا عليه من عواقب الفتنة[1] . وظلت الأمور تسير على هذا النحو حتى توفى أونوجور- بعد مرض شديد أَلَمَّ به- يوم السبت السابع أو الثامن من ذي القعدة سنة ٣٤٩هـ، ودفن بالقدس عند أبيه[2] .

بعد وفاة أونوجور بن الإخشيد، أقام كافور أخاه أبا الحسن علي بن الإخشيد مكانه، وأقره الخليفة المطيع على إمرة مصر على الجند والخراج، وأضاف إليه الشام، كما كان لأبيه ولأخيه من قبل[3] . وبالرغم من كِبَر سن عليّ نسبيًّا عن أخيه أونوجور عند ولايته مصر[4] ، إلا أنه كان أضعف من أخيه وأقل شأنًا؛ نظرًا لازدياد نفوذ كافور[5] عن ذي قبل.

وقد تعرضت مصر والشام وإقريطش[6] في عهده لنكبات متواليات، أسفرت عن تآمر سيف الدولة مع القرامطة، فأمدهم بما احتاجوا إليه من الحديد لتصنيع السلاح اللازم للهجوم على طَبَرِيَّة، والاستيلاء عليها من أيدي علي بن الإخشيد وجنده، وذلك سنة ٣٥٣هـ[7] ، وكانت قد سبقتها اضطرابات في مصر سنة ٣٥١هـ؛ بسبب الغلاء الفاحش الذي تعرضت له مصر بعد انخفاض

(١) يراجع ذلك الخلاف في تاريخ الإسلام ٢٥ / ٢١٨، وتاريخ ابن خلدون ٤ / ٤٠٨، والمقفى ٢/ ٣١٧ (وفيه أن أنوجور شكا كافوراً لفاتك غلام أبيه الإخشيد، عندما ذهب إلى الفيوم، فوعده فاتك النصرة، ثم لم يجرؤ على مخالفة كافور، فغضب أونوجور، وتمادى في لهوه ولعبه) .

(٢) وفيات الأعيان ٤/ ٩٩، والخطط ١/ ٣٢٩ (مع ملاحظة وجود تحريف- في الغالب- في تاريخ وفاته فجعل لفظة سبع بدلاً من تسع)، والنجوم ٣/ ٣٣٥ .

(٣) المصدر السابق ٣/ ٣٣٦: ذكر أن كنية (عليّ بن الإخشيد) هي (أبو الحسين) على سبيل التحريف.

(٤) فقد كان عمره حوالي ٢٣ سنة؛ لأنه ولد يوم الثلاثاء ٢٦ من صفر سنة ٣٢٦هـ بمصر (وفيات الأعيان ٤/ ١٠٠) .

(٥) هو كافور بن عبدالله الإخشيدي. كان عبداً لبعض أهل مصر، ثم اشتراه الإخشيد سنة ٣١٢هـ، وظل يترقى في المناصب، حتى غدا قائد جند ولدي الإخشيد؛ لنشاطه، وذكائه، وإخلاصه، وكان له موقع متميز لديه، وساعدته الظروف على الاستبداد بالحكم في مصر، وكان له فضل تأخير استيلاء العبيديين عليها. توفي سنة ٣٥٧هـ (ترجمته في مصادر كثيرة، منها: المصدر السابق ٤/ ٩٩ - ١٠٥، والخطط ٢/ ٢٦- ٢٧، والنجوم ٣/ ٢-١٢).

(٦) جزيرة مهمة يونانية تقع في بحر المغرب (الأبيض)، وهي جزيرة كريت الآن. (الأنساب ١/ ٢٠٠، ومعجم البلدان ١ / ٢٨٠).

(٧) البداية والنهاية ١١/ ٢٧٠ .

مياه النيل[1] . ويبدو أن الروم استغلوا هذه الظروف القاسية، فهاجموا بلاد الشام، وامتلكوا كلاً من: حلب، والمَصِّيصة، وطَرَسُوس[2] . وظلت الأحوال تنتقل من سيئ إلى أسوأ، حتى مات علي بن الإخشيد عليلاً لإحدى عشرة خلت من المحرم سنة ٣٥٥هـ[3] .

استبد كافور بالأمر صراحة بعد موت علي بن الإخشيد، وأعلن أنه ولي من قبل الخليفة المطيع على مصر والشام، وذلك في صفر ٣٥٥هـ[4] ، رافضًا تولية (أحمد بن علي بن الإخشيد)؛ لصغر سنه[5] . وفي فترة حكم كافور تلك لم تعرف البلاد الهناءة والاستقرار ما بين هجوم القرامطة[6] ، والعبيديين[7] ، والزلازل المروعة والقحط والمجاعات[8] . ولم يستطع كافور- رغم كفاءته[9] السيطرة على شئون البلاد حتى رحل عن دنيانا في جمادى الأولى سنة ٣٥٧هـ[10] .

(١) الخطط ١/ ٣٢٩-٣٣٠ .

(٢) وفيات الأعيان ٤/ ٩٩، وتاريخ الإسلامية ٢٦/ ١٥٠ .

(٣) وفيات الأعيان ٤/ ٩٩، والنجوم ٣/ ٣٧٤ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٩١ .

(٥) كان ابن إحدى عشرة سنة يوم وفاة كافور (النجوم ٤/ ١١) .

(٦) هاجم أعراب بني سليم ركب الحجيج من مصر والشام سنة ٣٥٥هـ وتمزق الناس في الصحاري، وفقد أهل الشام أموالهم التي فروا بها من هجوم الروم عليهم (الكامل ٧/ ٢٩٦، ومرآة الجنان ٢ / ٣٥٨). ويبدو أن هؤلاء الأعراب كانوا من القرامطة - أو على صلة بهم- ويبدو أن كافوراً كان على علاقة حسنة بصاحب هجر القرمطي، إذ وافت رسله مصر، عائدة بما تيسر استرجاعه من متاع هؤلاء الحجيج، ورد كافور ذلك المتاع إلى أصحابه (الذيل على الولاة للكندي ص ٢٩٧).

(٧) كان كافور يظهر الود واللين للمعز، ويظهر الخضوع للعباسيين، ويخدع هؤلاء وهؤلاء (سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٩٢)، وكان يتبادل الهدايا مع المعز، (تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٥١)، لكن هذا لم يمنعه من صد حملة المعز على الواحات (الخطط ٢/ ٢٧).

(٨) نفسه .

(٩) حول مواهب كافور وعناصر نجاحه في حكم مصر، لولا انخفاض النيل والكوارث (راجع: السابق ٢/ ٢٠٧، ومصر في عصر الإخشيديين ١٣٣-١٣٤).

(١٠) وهو الراجح عندي؛ بدليل ما ذكره الذهبي، وابن خلدون من أنه ولى مستقلاً بمصر عامين، و٤ أشهر (تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٥٢، وتاريخ ابن خلدون ٤/ ٤٠٩).

اجتمع الرأي على تولية أبي الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد شئون مصر على أن يدبر له الأمر الوزير جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات[1] ، لكن الدولة الإخشيدية كانت تعاني الاحتضار؛ نتيجة عدم وجود القيادات القادرة على انتشال البلاد مما هي فيه، ناهيك عن الأزمات الاقتصادية الطاحنة الناتجة عن نقصان مياه النيل؛ مما أدى إلى انتشار الأوبئة والمجاعات بين الناس[2] ، بالإضافة إلى سيطرة الحسن بن عُبيد الله بن طغج على الرملة، وأخذه البيعة لنفسه هناك واحتجازه أموال كافور بالشام لنفسه[3] ؛ مما عجّل بمقدم جيوش العبيديين بقيادة جوهر، الذي لم يلق سوى مقاومة من بقايا الإخشيديين في مصر والشام[4] ، استطاع بعدها أن يقنع أهل مصر أنه أمين على أرواحهم، وأموالهم، وعقائدهم، فدخلها دخول الفاتحين في شهر شعبان سنة ٣٥٨هـ[5] .

مجمل الأوضاع الاقتصادية زمن الإخشيديين:

من خلال معالجتنا السابقة للأوضاع السياسية في مصر من بعد سقوط الطولونيين، اتضح لنا أن فترة ما قبل الدولة الإخشيدية كانت مملوءة بالاضطرابات، وعدم الاستقرار؛ ولذلك لا نتوقع وجود نشاط اقتصادي واضح بها[6] . ومن هنا فإن تركيزنا سيكون حول فترة الحكم الإخشيدي؛ إذ عرفت مصر خلال هذا العصر الاستقرار، وما يترتب عليه من وجود سياسة اقتصادية واضحة، تنعكس آثارها على مجالات الحياة المختلفة.

---

(١) له ترجمة في: (تاريخ بغداد ٧/ ٢٣٤-٢٣٥، ومعجم الأدباء ٧/ ١٦٣-١٧٦).
(٢) المغرب (قسم مصر) ص٢٠١، والخطط ١/ ٩٩ .
(٣) الذيل على كتاب الولاة ٢٩٧ .
(٤) وفيات الأعيان ٥/ ٦١، ونهاية الأرب ٢٨ / ٦١-٦٢، والنجوم ٤/ ٣١-٣٢ .
(٥) حول أمان جوهر للشعب المصري يراجع: اتعاظ الحلفا (ط. الفكر العربي ١٩٤٨م) ص ١٤٨-١٥٣، ومصر في عصر الإخشيديين ٣٦٦-٣٧٠ .
(٦) بالإضافة لبعض الكوارث التي أصابت الزراعة، كما في سنة ٣١١هـ لما هاجمت أسراب الجراد غلة مصر، فأتت عليها، (مخطوطة نزهة الأنام في تاريخ الإسلام) لابن دُقْمَاق ورقة ٢٨ .

في عهد الإخشيد يذكر ابن سعيد[1] : أنه كان إذا أقبل شهر رمضان، أطلق النفقات للمسجد الجامع، وأمر بعمارة المساجد وترميمها، والعناية بمظهرها، وإضاءتها بالمصابيح، وتوفير الأئمة لها. وهذا لون من الاهتمام بالعمران في ذلك العصر. وكان الإخشيد يهتم بإقامة المتنزهات الفخمة التي تتكلف أموالاً كثيرة؛ كي يفاخر بها أهل العراق[2] ، وكان كثيراً ما يقيم ببستانه المعروف بـ (المختار)، والذي أقام إلى جانبه ميدانًا. وكان كافور- من بعده- يقيم به أيضًا[3] .

وبخصوص كافور فقد أمر ببناء دار له، يبدو أنها كانت على قدر كبير من الأهمية، وذلك بمدينة العَسْكَر[4] سنة ٣٤٦هـ بجوار بِرْكَة قارون، وقد تكلفت مائة ألف دينار، وهو رقم مبالغ فيه. وعلى كلٍّ، فقد سكنها في شهر رجب من السنة المذكورة، وانتقل منها بعد أيام؛ بسبب الوباء الذي وقع لغلمانه من بخار تلك البركة[5] . وهذا- ولا شك- لون من الإسراف في الإنفاق. وفي العام نفسه قام كافور الإخشيدي بعمل نافع في دولة الإخشيديين، لما قام ببناء مارَسْتَان لعلاج المرضى[6] .

شهدت الدولة الإخشيدية عدداً من مظاهر النشاط الاقتصادي، فقام كافور سنة ٣٣٦هـ بمشروع حفر خليج بساحل مصر، يَسَّر على الناس وصول الماء إليهم بعد جفاف النيل[7] ، وشهدت الصناعة رواجًا خاصة صناعة السفن[8] ،

---

(١) المغرب (قسم مصر) ص١٦٣ .
(٢) السابق ١٦٠-١٦١ .
(٣) وصفه المقريزي في (الخطط ١/ ٣٦٠، ٤٥٧) .
(٤) هي ثاني مدينة اتخذها العرب عاصمة لمصر بعد الفسطاط، بناها أبو عَوْن بأمر صالح بن علي ١٣٣هـ وصار أمراء مصر ينزلون بها، وكثرت بها الأسواق (م. البلدان ٤/ ١٣٩، والخطط ١/ ٣٠٤، والقاموس الجغرافي (القسم الأول- البلاد المندرسة) ص٨٤ .
(٥) الخطط ١/ ٣٠٤ .
(٦) السابق ٣/ ٤٠٦ .
(٧) السابق ١/ ٣٤٤، ومصر في العصور الوسطى، لعلى إبراهيم حسن ٣٩٩ .
(٨) المغرب (قسم مصر) ص ١٦٠، ١٦٦، ١٧٣، ١٩٧ .

وازدهرت التجارة[١]، وانتعشت حركة البيع والشراء، وبدت مظاهر ذلك في مدينة الفسطاط وأسواقها وحوانيتها[٢]، وكذلك فيما يدخل إلى خزينة الدولة من الأموال، وانتشار الثراء والضِّياع[٣]. وعُني الإخشيد بدار الضرب، وبلغت العملة في دولته درجة من القوة تدل على نمو الاقتصاد فيها[٤]، وساعد ذلك الإخشيد ومن بعده كافور على صرف الرواتب لأرباب الحاجات والفقراء، وكان منهم طائفة من الأشراف الذين افتقروا بعد النعمة[٥].

وأخيراً، فقد عانت البلاد من محن وبلاء بعد الإخشيد، تمثل فيما حل بها من جفاف وانخفاض لمياه النيل، وزلازل مدمرة[٦]، وما نتج عن ذلك من أوبئة وغلاء في الأسعار شديد، وتفاقمت الأزمات في المجاعة التي امتدت بعد وفاة كافور[٧]؛ مما أرهق الناس وأضعفهم، وساعد على ترجيب الكثيرين بمقدم العبيديين، على أمل الخلاص مما هم فيه من ضيق وعنت شديد.

مجمل الأوضاع الاجتماعية في العصر الإخشيدي:

لا نلمس تطوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية في مصر في العصر الإخشيدي؛ لأن التغيرات الاجتماعية تحتاج إلى زمن طويل، ولا تتم بين يوم

(١) مصر في عصر الإخشيديين ٢٧٩، وتجارة مصر في البحر الأحمر، د. القوصي ٧٩-٨٠، ورؤية الرحالة المسلمين ٣٠٨-٣٠٩، وكتاب رومانوس للإخشيد به طلب تيسير التجارة بين مصر وبيزنطة (المغرب - قسم مصر- ص١٧٢).

(٢) المسالك والممالك للإصطخري ٣٩-٤٠، وأحسن التقاسيم للمقدسي ١٦٨-١٦٩، والخطط ١/ ٣٣٠ - ٣٣٣.

(٣) راجع مقدار خراج مصر في عهده (مليونا دينار)، سوى ضياعه التي يمتلكها في: الخطط ١/ ٩٩، ومصر في عصر الإخشيديين ٣٤٢-٣٤٣. ومما يدل على عظم الأموال والثراء في مصر أخبار مصادرات الإخشيد لأثرياء مصر، ويمكن مراجعتها في: المغرب (قسم مصر ص١٥٤، ١٦٠، ١٦٣-١٦٥)، وكذلك تركة كافور الهائلة، التي خلفها من بعده (الخطط ٢/ ٢٧).

(٤) حول أهمية سك العملة في دعم الاستقلال السياسي والاقتصادي، وجهود الإخشيد في ذلك المضمار، راجع: المغرب (قسم مصر) ص ١٨١-١٨٢، ومقدمة ابن خلدون ٢/ ٦٣٧، ٧٠٠-٧٠٦، ومصر في العصور الوسطى ٣١٤.

(٥) الخطط ١/ ٩٩، وتاريخ الدولة الفاطمية، د. حسن إبراهيم ٢٩٧، ومصر في عصر الإخشيديين ص ٢٠٠.

(٦) كما حدث سنة ٣٤٤هـ والذي هدم البيوت، وأفزع الناس (تاريخ الإسلام) للذهبي ٢/ ٢٠.

(٧) مثل: غلاء سنة ٣٣٨هـ ٣٤١هـ ومجاعة استمرت ٩ سنوات متوالية بدءاً من سنة ٣٥٢هـ واشتداد الغلاء آخر عهد كافور (إغاثة الأمة ١٠-١١، والخطط ٢/ ٢٧).

وليلة. وعلى كلٍّ، فالمادة المتوفرة لدينا عنها أكبر حجماً مما عليه الحال في الفترة السابقة؛ نظراً لما حظيت به مصر في ظل استقلال الإخشيديين شبه التام من اهتمام، وما تمتعت به مصر من استقرار سياسي واقتصادي. وقد كان المجتمع المصري مجتمعاً متآلفاً متناسقاً في ذلك العصر، ويعد العلويون فيه على رأس عناصره[١] المكونة لنسيجه، المتمتعة بمنزلة اجتماعية واقتصادية طيبة.

وقد كان الإخشيد على صلة وثيقة بزعيمي الأشراف في عهده: عبدالله بن طباطبا الحَسَني، والحسن بن طاهر الحُسَيْني، على ما بينهما من تنافس على الرئاسة[٢]. وَكان الحسن بن طاهر وسيطاً في الصلح بين الإخشيد وابن رائق، وكان أبو إبراهيم الرَّسِّيّ العلوي موضع احترام وتقدير الإخشيد؛ إذ قبل شفاعته في الكاتب البغدادي المستتر (سهل بن محمد)[٣]. ولم تتغير مكانة العلويين بعد وفاة الإخشيد، فقد لقوا معاملة طيبة، وتَجِلَّة واحتراماً في عهد كافور، الذي تفقَّد نساء الأشراف، وخَصّهن بالإحسان والعطاء والرعاية[٤]. وبالإضافة لما تقدم، فقد كانت لهم نقابة تعرف بـ (نقابة الطالبيين)[٥].

ووجد في المجتمع المصري آنذاك طائفة من كبار الموظفين والملاك والتجار، وهؤلاء هم الأثرياء من القوم،وكانت بأيديهم إدارة شئون البلاد، وعلى رأسهم أسرة المادَرائيين المشهورة.

وأخيراً، هناك عامة الناس وأهل الذمة، والأولون منهم من المسلمين هم غالبية السكان، وهم المقياس الحقيقي لحال المجتمع وسماته في تلك الفترة.

(١) تناولت د. سيدة كاشف عناصر المجتمع المصري وطبقاته في (مصر في عصر الإخشيديين) ص٢٣٣-٢٤٤.

(٢) المغرب (قسم مصر): ص ١٦٦.

(٤) السابق ٢٠٠-٢٠١.

(٣) السابق ص ١٨٨.

(٥) وهي التي عرفت بعد ذلك بـ (نقابة الأشراف)، ويتولاها شيخ هذه الطائفة وأجَلُّهَا قدراً، وله النظر في أمورهم، ومنع من يدخل فيهم من الأدعياء، وإذا ارتاب بأحد طالبه بإثبات نسبه، ويقوم بعيادة مرضاهم، والسير في جنائزهم، والسعي في حوائجهم، والأخذ على يد المعتدي منهم، ولا يقطع أمراً يتعلق بهم إلا بموافقة مشايخهم. (صبح الأعشى ٣/ ٤٨٢). وكان أبو القاسم أحمد بن محمد بن طباطبا العلوي نقيب الطالبيين (ت٣٤٥هـ). (وفيات الأعيان ١/ ١٢٩-١٣١، وتاريخ الإسلام ٣٥/ ٣١٢).

وأعتقد أنهم كانوا أحسن حالاً في ظل دولة شبه مستقلة، يسعى مؤسسها ومن بعده غلامة كافور لتثبيت أركانها ودعائمها، ولا يكون ذلك إلا بالاهتمام بهذا العنصر السكاني المهم، الذي على أكتاف أفراده تنهض تلك الدولة. وقد تعرض عوام الناس لبلاء كبير وفناء عظيم في المجاعة الحادثة في عهد كافور؛ بدليل أن الأغنياء لم يجدوا من يقبل الزكاة (ربما لأن الفقراء يريدون الطعام لا المال)، فأتوا بها إلى كافور، فقال: ابنوا بها المساجد، واتخذوا لها الأوقاف[(١)] .

أما أهل الذمة، فلم نسمع عن وقوع اضطهادات لهم من قبل الدولة. وكان الإخشيد يتدخل باستخدام القوة عندما تلجأ إليه بعض الطوائف النصرانية ضد الأخرى، ويقوم بإنهاء الخلاف بينهم[(٢)] . وقد وردت بعض النصوص التي تفيد وقوع مصادمات واعتداءات من عامة المصريين على بعض كنائس النصارى في مصر كرد فعل غاضب غير مسئول؛ نتيجة اعتداءات البيزنطيين على المسلمين في أطراف الشام[(٣)] ، وكذلك عند الاحتجاج على السماح لهم بتعمير الكنائس[(٤)] .

يمكننا أن نشير- في عجالة- إلى أبرز مظاهر الحياة الاجتماعية، وأهم خصائص المجتمع في العصر الإخشيدي على النحو الآتي:

١- في ظل حالة الاستقرار السياسي، والنمو الاقتصادي أحب الناس الإخشيد، وسُرّوا برجوعه سالمًا من حربه في الشام أمام ابن رائق، وزينوا له الطرق والأسواق، فأقرّ الزينة على حالها (عند رجوعه يوم الخميس سنة ٣٢٨هـ)، ثم ركب من الغد إلى الجامع العتيق لصلاة الجمعة، فكان يومًا عظيمًا مشهودًا[(٥)] .

(١) صبح الأعشى ٣/ ٣٤٢ .

(٢) عرض تفاصيل هذا الخلاف يحيى بن سعيد الأنطاكي في ذيله على (تاريخ ابن البطريق- أحداث ٣٢٨هـ) ص ٢٣-٢٧، ومصر في عصر الإخشيديين ص ٢٤١-٢٤٢ .

(٣) تفاصيله في (الذيل على تاريخ ابن البطريق) ص٩٢ - ٩٣ (أحداث ٣٤٩هـ).

(٤) المغرب (قسم مصر) ص ١٨٣-١٨٤ .

(٥) المصدر السابق ص ١٧٥ .

٢- كثرة المواكب والاحتفالات[(١)] : مثل موكبه الأسبوعي إلى مسجد ابن طولون لأداء صلاة الجمعة[(٢)] ، وحضوره ختم القرآن في شهر رمضان[(٣)] ، واستعراضه الجند ليلة عيد الفطر مقتديًا في ذلك بابن طولون[(٤)] .

٣- شيوع الترف في حياة علية القوم في حفلات السمر[(٥)] ، ومآدب الطعام والشراب[(٦)] .

٤- ظهور بعض ألوان الانحراف في المجتمع؛ مما دفع الإخشيد لمحاربة ذلك، ومحاولة القضاء عليه[(٧)] .

٥- وأخيرًا، نما وعي الشعب المصري في تلك الفترة، فازدادت إيجابيته ومتابعته للأحداث، وانفعاله بها وتفاعله معها. ولعل اتباع الإخشيد سياسة اللين والمداراة، مع ما تحقق من ازدهار إلى جانب حب الناس للتطلع[(٨)] ، شجع

(١) مثل: عيدَي النَّوروز، والمهْرَجان الفارسيين، اللذيْن كانت تُمنح للإخشيد فيهما الهدايا (خاصة العنبر). (المغرب ١٨٦)، وكذلك الاحتفال بليلة عيد الغطاس النصراني (ليلة ١١ طوبة - ٦ كانون الثاني (يناير). وقد شهد المسعودي بنفسه مظاهر الاحتفال بذلك العيد، عندما كان بمصر سنة ٣٣٠هـ وشارك فيه الإخشيد بنفسه، ومعه مئات الآلاف من المسلمين والنصارى في الزوارق النيلية، وعلى الشواطئ؛ يشعلون المصابيح طوال الليل، ويسرفون في الأكل والشرب، والملبس والملاهي، ويغطس أكثرهم بليل؛ زاعمين أنه أمان من المرض، وشفاء من الداء. (مروج الذهب، مجلد ١، ص ٢٩٨-٢٩٩، والخطط ١/ ٢٦٥).

(٢) المغرب (قسم مصر) ص١٥٩، ١٨٥ .

(٣) السابق: ١٦٠، ١٨٥ .

(٤) السابق: ١٦٣ .

(٥) بعض ملامح مجالس السمر في (المصدر السابق ص١٦٣، ١٨٤).

(٦) السابق: ١٥٤، ١٨١، والخطط ١/ ٣٣٢ .

(٧) فقد أمر بهدم المواخير (جمع ماخور)، وهي بيوت تجمع الفَسَقَة والفاسدين، وأهل الريبة، وهدم دور المقامرين وعاقب أهلها. (المغرب- قسم مصر ١٨٠-١٨١، و(المسعودي) للخربوطلي ص١٦ . ولا يصح ما ورد في (اتعاظ الحنفا- ط. دار الفكر ١٤٣، والخطط ١/ ٣٥٣) من أن ابنة الإخشيد ذهبت إلى سوق الرقيق؛ لتشتري جارية، تستمتع بها، ذلك في - غالب الظن- من قبيل الدعاية الكاذبة، التي روج لها المعز؛ ليبين استشراء الفساد في مصر، فيُهَوِّن على جيشه وجنده أمر غزوها، والاستيلاء عليها.

(٨) يتصف شعب مصر - حتى الآن- بحب التطلع، والوقوف لمشاهدة ما يصادفه من أشياء، والتكالب والتزاحم عليها في الشوارع والطرقات، ولو عرّضه ذلك للأخطار . (راجع ذيل تاريخ ابن البطريق- أحداث ٣٤٩هـ ص ٩٣)، بخصوص تجمع الناس زمن كافور عند إنزال مركب جديد في الأسطول إلى البحر، وتزاحمهم، حتى قتل منهم غرقًا زهاء ٥٠٠ رجل).

الناس على ألا تكون على هامش الأحداث، بل كانت في قلبها، وتتدخل في مجرياتها[1] ، ويُعمل لها حسابٌ في هذا الصدد[2] .

الخطوط الثقافية العامة في العصر الإخشيدي:

أولاً: القراءات: وقد شهدت مصر عدداً من علماء القراءات في هذا العصر، منهم: أحمد بن أسامة بن أحمد التُّجِيبِيّ المصري، الذي كان من أئمة القراءات، وعُمِّر طويلاً فجاوز المائة، وتوفي في رجب ٣٥٦هـ[3] . وهناك المقرئ المصري محمد بن علي (أبو بكر الأُدْفُوِيّ)، الذي لازم أبا جعفر النحاس، وبرع في علوم القرآن[4] ، وهو آخر أساتذة مدرسة وَرْش العظام في القرن الرابع الهجري (ت٣٨٨هـ)[5] .

ثانيًا: التفسير: من علماء التفسير في مصر: أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النَّحَّاس، الذي تفوق في عدة علوم، يأتي التفسير على رأسها، واشتغل بالتأليف في علوم القرآن. من مصنفاته: (تفسير القرآن)،

(١) تابع الناس أخبار حرب الإخشيد وابن رائق بالشام (شعبان ٣٢٨هـ)، وكان لهم رد فعل عنيف لما سمعوا بالهزيمة أولاً، ووقعت اضطرابات واحتجاجات حتى ركب أبو المظفر بن طغج، ومحمد بن علي المادَرائي؛ لتسكين غضب الناس، ثم وردت الأخبار بتحول الهزيمة إلى نصر، ودخول الأسرى، ورءوس القتلى، فزينت الأسواق. (المغرب – قسم مصر– ص ١٧٨).

(٢) راجع تفاصيل موقف الرعية الثائر الغاضب، مما بلغهم عن أحد الفقهاء بشأن السماح بترميم ما تهدم من كنيسة أبي شنودة سنة ٣٢٦هـ وما قاموا به من محاولة الفتك بهذا الفقيه، ومحاصرتهم الطرق، وإغلاقهم الدروب، وقذفهم الجند الإخشيدي بالحجارة. ولم تهدأ ثائرتهم حتى علموا بإبقاء الكنيسة على ما هي عليه (المصدر السابق ص ١٨٣– ١٨٤). وهذا الموقف وغيره مما كان الإخشيد يعمل له ألف حساب، ينفي صحة ما تذكره د. سيدة كاشف في (مصر في عصر الإخشيديين) ص ٣٧٦-٣٧٧، من أن الشعب المصري في العصر الإخشيدي كان هادئًا خاضعًا، يغلب على أفراده طابع الانصراف إلى شئونهم الخاصة، والعيش على هامش الحياة السياسية، وأنه لم يكن هناك رأي عام، تحسب الحكومة حسابه .

(٣) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٣٥ . ورجح تاريخ الوفاة المذكور ابن الجَزَرِيّ على تاريخ ٣٤٢هـ في (طبقات القراء) ١ / ٣٨ .

(٤) معرفة القراء الكبار، للذهبي ١ / ٢٨٤، وحسن المحاضرة ١/ ٤٩٠ .

(٥) القرآن وعلومه في مصر ص ٢٢٥ .

و(الناسخ والمنسوخ)، وغيرها. توفي في مصر سنة ٣٣٨هـ[1] . ويأتي – بعد ذلك– المفسر أبو بكر محمد بن الحَسن بن زياد النقاش، وهو عراقي الأصل، ورحل إلى بلاد كثيرة (منها: مصر) طلبًا للعلم. وقد أَلَمَّ بمصر فترة من الزمن، وخَلَّف كتابًا في التفسير، سماه (شفاء الصدور)[2] ، وتوفي سنة ٣٥١هـ[3] .

ثالثًا: الحديث: عُنِي علماء مصر بحديث رسول الله ﷺ : رواية، وتأليفًا، ورجالاً. من أبرز هؤلاء المحدثين وأشهرهم في ذلك العصر: الإمام الحافظ القدوة، محدث الديار المصرية (أبو القاسم حمزة بن محمد الكناني)[4] ، الذي ولد سنة ٢٧٥هـ، وسمع الحديث سنة ٢٩٥هـ، ورحل إلى العراق في طلبه سنة ٣٠٥هـ، وخلف في مصر حديثًا وتلاميذ كثيرين، وتمنى على الله أن يقبضه قبل دخول العبيديين مصر، فتوفي في ذي الحجة سنة ٣٥٧هـ[5] .

ومن محدثي مصر أيضًا: (أبو محمد الحسن بن رشيق العسكري)، وهو إمام صادق معدِّل، له فهم ومعرفة وإسناد عالٍ. ولد سنة ٢٨٣هـ وتوفي سنة ٣٧٠هـ[6] .

رابعًا: الفقه: عرفت مصر عدداً من المذاهب الفقهية المشهورة، وقام علماء هذه المذاهب بتدريسها في المساجد، وتعليم الناس أحكام دينهم. ومن فقهاء مصر المالكية: محمد بن أحمد بن أبي يوسف (أبو بكر الخلال)، وكان يدرس بجامع

(١) طبقات النحويين للزبيدي ٢٢٠-٢٢١ (وجعل وفاته ٣٠٧هـ خطأ)، ومعجم الأدباء ٤ / ٢٢٤-٢٣٠ .

(٢) طعن أكثر من محدث فيه، وضَعَّف ما ورد به من أحاديث (المقفى ٥/ ٥٦٢).

(٣) تاريخ بغداد ٢/ ٢٠١-٢٠٥، ووفيات الأعيان ٤ / ٢٩٨-٢٩٩ .

(٤) بغية الطلب ٦/ ٢٩٥٧-٢٩٦٠، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ١٧٩-١٨١، وتاريخ الإسلام ١٦/ ٤٣٧-٤٣٨ .

(٥) ورد في سير أعلام النبلاء ١٦ / ١٨١: أنه بلغه أن عسكر المعز وصلوا إلى الإسكندرية، فدعا الله أن يميته قبل دخولهم مصر، فدخلوا بعد موته بثلاث. وفي (المقفى) ٣/ ٦٧٠: بثلاثة أيام. وأشك في صحة هذا الكلام؛ لأن جوهراً دخل مصر في شعبان ٣٥٨هـ. (اتعاظ الحنفا، ط. دار الفكر ١٥٧). وهذا المحدث مات في ذي الحجة ٣٥٧هـ أي: قبل دخولهم بحوالي ٧ شهور.

(٦) سير أعلام النبلاء ١٦ / ٢٨٠ - ٢٨١، والوافي بالوفيات ١٢/ ١٦-١٧ .

مصر، وأخذ عنه الناس. ألَّف أربعين جزءاً من منتقى قول الإمام مالك. توفي سنة ٣٢٢هـ[١]. والفقيه محمد بن أحمد بن أبي الأصبع الحَرَّاني، الذي سكن مصر، وأمَّ بالجامع العتيق، وكان فقيهاً مشهوراً، فصيح اللسان. توفي في شوال سنة ٣٣٩هـ[٢]. وأخيراً، نذكر شيخ المالكية محمد بن القاسم بن شعبان المصري، وكان ذا باع طويل بالفقه والسنَّة، وترك عدة مؤلفات بديعة، مثل: (الزاهر في الفقه)، و(أحكام القرآن)[٣]. توفي في شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٥هـ[٤].

ومن أشهر فقهاء المذهب الحنفي في مصر: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الشهير بـ (الطَّحَاوي)[٥]، وكان رأس المذهب الحنفي في مصر، بعد أن تحول عن المذهب الشافعي لما انتهره خاله المُزَني الشافعي في بداية عهده بالطلب[٦]. ولد سنة ٢٣٩هـ[٧]، ونبغ في فقه الحنفية[٨]، وترك مؤلفات فقهية غاية في الأهمية، مثل: (أحكام القرآن)، و(اختلاف العلماء)، و(مشكل الآثار)، و(شرح معاني الآثار)[٩]، وكانت وفاته سنة ٣٢١هـ.

---

(١) الديباج ٢ / ١٨٨ ..

(٢) تاريخ الإسلام ٢٥/ ١٧٦-١٧٧، والديباج ٢/ ٣٠٧، وطبقات ابن الجزري ٢/ ٦٨ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٦/ ٧٨ .

(٤) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٣١-١٣٢، والسير ١٦/ ٧٨-٧٩، والديباج ٢/ ١٩٤-١٩٥ . وغير صحيح ما ذكره الأخير ٢/ ١٩٥: أن موته وافق دخول بنى عبيد الروافض مصر، وأنه شديد الذم لهم؛ لأن بنى عبيد دخلوا سنة ٣٥٨هـ.

(٥) طبقات الفقهاء للشيرازي (ط. إحسان) ص١٤٢، والطبقات السنية في تراجم الحنفية ٢/ ٤٩-٥٢ .

(٦) طبقات الشيرازي ص ١٤٢، والسير ١٥/ ٢٩ .

(٧) المصدر السابق ١٥ / ٢٨ .

(٨) بعض مسائله الفقهية في (الاستذكار) ١/ ٤١٩، ٢ / ٣٦٨ . وجعله د.غنايم في رسالته للدكتوراه ص ٣٨٠، مجتهداً في المذهب الحنفي. وذكر صاحب ماجستير: (الربيع المرادي) ص ١١١-١١٢: أن الطحاوي كان تلميذ الربيع تلميذ الشافعي.

(٩) وفيات الأعيان ١/ ٧١، والسير ١٥/ ٢٩، وتاريخ الأدب العربي، لبروكلمان (ط. دار المعارف) ٣/ ٢٦١-٢٦٥ .

وأخيراً، نشير إلى عالم عصره، وإمام الشافعية في مصر: الفقيه أبي بكر محمد بن أحمد الكناني، المعروف بـ (ابن الحَدَّاد)[١]. ولد سنة ٢٦٤هـ، ونبغ في المذهب الشافعي، وألَّف مجموعة من الكتب، منها: (الفروع) في المذهب الشافعي، و(أدب القاضي) في أربعين جزءاً، و(الفرائض) في حوالي مائة جزء[٢]، وتوفي سنة ٣٤٤هـ.

خامساً: اللغة: ازدهرت اللغة العربية في مصر في القرن الرابع الهجري، واكتمل انتصارها على اللغة القبطية، التي أخذت طريقها نحو الاندثار[٣]. ورأينا في هذا القرن لغويين ونحويين على درجة كبيرة من القدرة على هضم واستيعاب نتاج علماء البصرة والكوفة، ثم التجديد والإبداع. ومن هؤلاء: شيخ العربية، ووريث علمها عن أبيه وجَدِّه، وقسيم الشيخ أبي جعفر النحاس، ومنافسه في إبداع مؤلفاتها: (أبو العباس أحمد بن محمد بن الوليد التميمي)[٤] صاحب كتاب (الانتصار لسيبَويه على المُبَرِّد)، و(المقصور والممدود). توفى سنة ٣٣٢هـ. وهناك النحوي المصري (علي بن الحسن) المعروف بـ (عَلاَّن)، وكان من ذَوي النظر والتدقيق في المعاني[٥]. توفى في مصر سنة ٣٣٧هـ.

وأخيراً، يأتي (أحمد بن إسماعيل النحاس، أبو جعفر النحوي)، الذي تلقى كتاب سيبويه على الزَّجَّاج ببغداد، ثم عاد إلى مصر، فأبدع أكثر من خمسين مصنفًا، من أشهرها في مجال النحو: (إعراب القرآن)، وفيه حشد وجوه الإعراب دون اختيار، أو تعليل[٦]، وكذلك ألَّف (الكافي في علم العربية)[٧]. توفى سنة ٣٣٨هـ.

---

(١) الأنساب ٢ / ١٨١، والسير ١ / ٤٤٥-٤٥١، والوافي بالوفيات ٢/ ٦٩، وطبقات السبكي ٣/ ٧٩-٨٣، والمقفى ٥/ ٢٥٣ وبعدها.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٥/ ٤٤٧ .

(٣) تاريخ اللغة العربية في مصر، د. أحمد مختار ص ٤٥ .

(٤) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٧٢، ومرآة الجنان ٢/ ٣١١-٣١٢ .

(٥) طبقات النحويين للزبيدي ص ٢٢٢ .

(٦) المصدر السابق: ٢٢٠ .

(٧) السابق: ٢٢٠، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن الدمياطي ص ٧٢-٧٣ .

سادساً: الأدب: من شعراء مصر في العصر الإخشيدي: سعيد المعروف بـ (قاضي البقر)[١] ، وأبو الفتح بن البيني[٢] ، وكلاهما يشترك في الإكثار من أشعار المجون، ووصف مجالس الشراب.

ويعد الشاعر المتنبي أشهر شعراء العربية دخولاً إلى مصر ومكثًا بها[٣] ، وتعد مدائحه في كافور من أشهر ما قيل في هذا المجال. ولما أيس من بلوغ مراده عنده[٤] ، عدا عليه فهجاه، وفَرَّ من مصر ليلة عيد النحر سنة ٣٥٠هـ[٥] ، وتوجه إلى عضد الدولة، ثم قُتل بعد انصرافه نحو البادية سنة ٣٥٤هـ.

وأخيراً، فإن أشهر كتَّاب النثر في العصر الإخشيدي: إبراهيم بن عبدالله النَّجيرَمي الكاتب (توفى حوالي ٣٥٥هـ)[٦] . حظي بمكانة طيبة في بلاط الإخشيد، وغدا زعيم الكتّاب في عهده بعد أن هيأته مؤهلاته في النحو واللغة والعربية لتسنُّم هذه المكانة، التي تأكدت بكتابه الذي أنشأه على لسان الإخشيد ردًا على رسالة الإمبراطور رومانوس الرومي إليه[٧] . وفي عهد كافور ظلت مكانته محفوظة لديه، وكان من البارزين في بلاطه، الذي ضم العلماء والشعراء والكُتَّاب[٨] .

سابعًا وأخيراً–علم التاريخ: اهتم مؤرخو مصر في هذا العصر بالتأريخ لبلدهم؛

---

(١) المغرب (قسم مصر) ص٢٧٢، وفي الأدب المصري الإسلامي حتى الفاطميين ، د. محمد كامل حسين ص ٢٣١ .

(٢) المصدر السابق ٢٧٢-٢٧٣ .

(٣) وفيات الأعيان ١/ ١٢٢، وبغية الطلب ٢/ ٦٧٥ .

(٤) وفيات الأعيان ١/ ١٢٢ .

(٥) الوافي بالوفيات ٦/ ٣٣٦-٣٤٦ .

(٦) إنباه الرواه ١/ ١٧٠-١٧١، والوافي ٦/ ٣٤، والأعلام للزِّركْلِي ١/ ٤٢، وفي الأدب المصري الإسلامي د. محمد كامل حسين ١١٢ وبعدها، والأدب العربي في مصر، د. عبدالرزاق حميدة ص١٢٤ وبعدها. وهو ينسب إلى (نَجِيرَم)، وهي محلة بالبصرة. (الأنساب ٥/ ٤٦٣). وذكر القفطي في (إنباه الرواة) ١/ ١٧٠: أنها قرية على ساحل البحر الهندي في طريق فارس من البصرة.

(٧) نصه في المغرب- قسم مصر - ص ١٦٧-١٧٢ .

(٨) إنباه الرواة ١/ ١٧١ .

فأول ما استرعى انتباههم كتابة سير حكامهم، ممن استقلَّ بمصر، وحقق لها من النمو والازدهار ما حاز إعجابهم، فأرادوا تسجيل حياة هؤلاءالحكام، وتخليد مآثرهم. من هؤلاء: المؤرخ (ابن زولاق ت ٣٨٧هـ)، الذي قام بتدوين سيرة (الإخشيد)، وسيرة النحوي المصري المعروف بـ (سيبويه المصري)، وسجل- أيضًا- سيرة أسرة (المادَرائيين) .

أما الاتجاه الثاني من اتجاهات التأليف التاريخي المحلي في مصر في ذلك العصر، فهو كتب (التراجم)، وقد واكبت هذه المؤلفات حركة الازدهار العلمي في ذلك العصر، وكثرة العلوم والعلماء، وكثرة الرحلات؛ طلبًا للعلم، فأراد بعض المؤرخين أن يؤرخ لتلك الحركة العلمية المهمة، فأرخ بعضهم للعلماء الأوائل في مصر (الصحابة)، مثل: محمد بن الربيع الجيزي (ت٣٢٤هـ)، وتلاه (ابن يونس الصَّدَفي) المتوفى سنة ٣٤٧هـ فألف عن (تاريخ المصريين)، و(تاريخ الغرباء)، أي: العلماء الوافدين على مصر من الخارج. واهتم الكندي (ت٣٥٠هـ) بنوعية معينة من العلماء هم (العلماء الموالي).

وبالنسبة للاتجاه الثالث في كتابة (التاريخ المحلي) في مصر، فقد اهتم أصحابه بالتأريخ للحضارة والنظم، فكتب المؤرخ الكندي عن (الولاة)، و(القضاة) في مصر.

❀❀❀